القسم الثالث

القائد العام

كل شيء بسيط في الحرب

ولكن أبسط الأشياء صعب.

وهذه الصعوبات تتراكم وتنتج

احتكاكاً، وهو احتكاك لا يستطيع إنسان

لم يكن قد شهد الحرب أن يتخيله بالضبط.

– كارل فون كلاوزفيتز، في الحرب

الفصل السادس

جوارخطر

الولايات المتحدة، القيادة المركزية، ماكديل

قاعدة القوات الجوية، تامبا، فلوريدا

24 نيسان/إبريل، 2000

رفعت بصري عن الرسائل السرية الموجودة على حاسوبي الصغير عندما قامت السائقة الشابة في القوات الجوية بإنزال نافذتها وأدخلت رمز دخول اليوم إلى حاسوب الترميز الصغير. وانزلقت البوابة السوداء الفولاذية منفتحة، واستدرنا إلى دائرة الموقف المظلل بالنخيل في المقر العام للقيادة المركزية.

في الأعوام الثلاثة التي أمضيتها في قيادة قوات الجيش القيادة المركزية، سبق لي أن جئت إلى القيادة المركزية في تامبا عدة مرات. ولكن صباح هذا الاثنين كان مختلفاً. فقد طلب مني طوني زيني الحضور لمناقشة مستقبل القيادة. ففي غضون أقل من شهر، سوف أمر من خلال جلسة استماع مجلس الشيوخ لتثبيتي لأكون خَلَفه بصفتي القائد العام للقيادة المركزية الأمريكية.

كان يمكن للمبنى، من الخارج، أن يكون بالضبط شركة أخرى عالية التقانة من شركات حزام الشمس.(*) ولكن الشرطيين العسكريين الموجودين عند نقطة تفتيش البهو كانا يلبسان بزة عسكرية مموهة باللون المصفَرّ والبني ويتسلحان بمسدسات عيار 9 ملم بيريتا، وكان واضحاً أنهما ليسا مدنيين.

وعندما تبادلنا التحيات كانت كلمتهم "صباح الخير، يا سيدي." بلهجة صديقة. وعلى الرغم من أنهما عرفاني بوضوح، فإن الحارسين دققا حسب ما

(*) الولايات الجنوبية والجنوبية الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية.

يقضيه واجبهما، في بطاقة هويتي الخاصة من وزارة الدفاع قبل إدخال اسمي في الحاسوب. هذا المقر العام يحتوي على بعض أكثر الاستخبارات وتقانة الاتصالات حساسية في العالم.

ورافقني واحد من مساعدي طوني، وهو ملازم بحرية شاب، إلى الدور الثاني. وعند مروري على الدرج على أعضاء في الخدمات الأربع كلها، كان هذا تذكيراً واضحاً لي بما ينتظرني في المستقبل: فلأول مرة، سأقود قيادة موحدة.

والقيادة المركزية، مثلها مثل القيادات الإقليمية المقاتلة الأخرى، كانت من إنشاء قانون غولدووتر- نيكولس لإعادة تنظيم وزارة الدفاع في العام 1986. ولا تمتلك هذه القيادات قوات دائمة خاصة بها، ولكنها بدلاً من ذلك، اعتمدت على قيادة الجيش، والقوات الجوية، والأسطول، والبحرية، وقيادة القوات الخاصة لتنجز مهامها. وكان يقال في الدوائر العسكرية إن شاغلي منصب القائد العام كانوا يرتدون "بدلات قرمزية" وهم بذلك يخلطون الألوان التقليدية لفيالق الجيش، والأسطول، والقوات الجوية، ومشاة البحرية.

وتفحصت لوحة، على لوح خشب قاس، كانت قد وضعت في الممر منذ زيارتي الأخيرة، وهي تصف منطقة المسؤولية التي تتولاها القيادة المركزية. وشملت هذه القيادة منطقة هي أكثر مناطق هذا الكوكب تنوعاً، وأكثرها حيوية من الناحية الإستراتيجية وأكثرها عدم استقرار.

القيادة المركزية مسؤولة عن صون الاستقرار في منطقة امتدت عبر خمس وعشرين دولة، من كينيا والقرن الإفريقي، وشمالاً عبر صحارى السودان، ومصر، والأردن، ومستمرة عبر البحر الأحمر والخليج العربي، وعبر العراق، وإيران، وأفغانستان والبلدان السابقة في الاتحاد السوفيتي التي تنتهي أسماؤها بمقطع ستان، إلى حدود الصين تماماً. وشغلت باكستان الجانب الأيمن البعيد للمنطقة.

والمنطقة وطن لأكثر من خمسمائة مليون نسمة في ثماني عشرة مجموعة

عرقية وعدد لا حصر له من القبائل. وهم يمارسون كل أديان العالم الكبرى، ويتحدثون سبع لغات رئيسية ومئات من اللهجات. وثلثا هؤلاء السكان تقريباً تحت سن الخامسة والعشرين، وعاطلون عن العمل، وقلقون. وعلماء السكان يسمونها "مجموعة جيل شباب مهمة" والمخططون العسكريون والدبلوماسيون يسمونها اضطراباً كبيراً جداً على الدرب. هؤلاء الشباب المتبرمون، كما نعرف، يمثلون ملايين من المجندين المحتملين للإرهاب.

واقتصادات المنطقة هي على مثل ذلك التنوع تماماً، وهي تحمل إمكانية سرعة التقلب تماماً. فعالم البدو الرحل الأريتيريين في العصر الحجري في القرن الإفريقي ليس بعيداً عن إمارات الخليج الغنية بالزيت، وفي آسيا الوسطى، تواجهتْ في صدام مباشر البقايا الراكدة من بيريسترويكا جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق مع رأسمالية القرن الحادي والعشرين المفرطة السخونة.

منطقة مسؤولية القيادة المركزية شملت الأرض التاريخية وملتقيات الطرق البرية والبحرية التي تربط أوروبا، وآسيا، وإفريقيا، وهي تمتلك 65 بالمائة من احتياطيات العالم المخزونة من البترول.

عندما وصلت، كان طوني على الهاتف مع الوزير كوهين، وانتظرت في قبة صغيرة خارج مكتب القائد العام كان الموظفون يسمونها غرفة الغنائم. وكانت الغرفة مؤثثة بسجاد آسيا الوسطى، وطاولة عربية مرصعة بالعاج والنحاس، ومحافظ للأسلحة بواجهات زجاجية. ومعظم المسدسات، وبنادق الاقتحام، والرشاشات كانت غنائم من ميدان المعركة، والعديد منها من عملية عاصفة الصحراء، ولكن عدداً منها كان أسلحة احتفالية أهديت من زعماء أجانب إلى طوني أو إلى أسلافه. هنا هو المكان الذي كان القائد العام يرحب فيه بكبار الضيوف الأجانب الزائرين: لم يكن مكتباً عسكرياً إسبارطيا، والحجرة ترسل رسالة مؤداها أن القائد يقدر ثقافة المنطقة التي يقوم بالمسؤولية عنها.

بعد أن انتهى طوني من مكالمته، رحب بي بحرارة، ممسكاً يدي بأصابعه القوية

وضاحكاً ضحكة عريضة. وفي مكتبه الواسع، أشار إلى خريطة لمنطقة المسؤولية موضوعة على حامل بالقرب من الأريكة. "بيتك الجديد، يا تومي، جوار خطر."

وعندما كان طوني يتكلم، تفرست في الخريطة وفكرت بالتاريخ المحفور داخل حدودها. لقد اشتعلت الحرب في السودان وفي القرن الإفريقي طوال عقود من الزمن. وفي العام 1993، وفي الأزقة المغبرة من مقديشو، في الصومال، تكبدت القوات العسكرية الأمريكية هزيمة من أخطر هزائمها، وكانت اندحاراً ترك إدارة كلينتون تخاف من صوت نيران المدفع بشأن تكليف القوات الأرضية الأمريكية في المنطقة، وأعطتها سمعة نمر من ورق.

وعلى الرغم من أن إسرائيل وليبيا كانتا من الناحية الفنية في منطقة "اهتمامنا" لا "مسؤوليتنا" فلم يكن بالإمكان تجاهلهما. فليبيا كانت أمة منبوذة غنية بالزيت تحت سيطرة معمر القذافي المتقلب المزاج.

والنزاع الإسرائيلي العربي الذي لا ينتهي سيطر على الواقع الجغرافي الإستراتيجي للشرق الأوسط. وإسرائيل، وهي أقوى قوة عسكرية في المنطقة، دافعت عن حقها في الوجود بترسانة رادعة من الأسلحة النووية. ولكنها حتى الآن لم تكن قادرة على إقامة السلام مع الفلسطينيين.

ويبقى العراق، طبعاً، نقطة الاشتعال. فبعد عشر سنوات تقريباً من وقف إطلاق النار في حرب الخليج، كان إطلاق النار يوجه إلى الملاحين الجويين للتحالف يومياً وهم يفرضون مناطق حظر للطيران.

وإيران صارت لغزاً. فطوال أكثر من عقدين من الزمن كانت البلاد حكومة دينية، حكمها رجال الدين الشيعة الذين كانوا يحتقرون الغرب عموماً وأمريكا على وجه الخصوص. وبدأ يظهر الآن قادة جدد يظهرون بمظهر المعتدلين، ولكن إيران كانت ما تزال ترعى الإرهاب وتطور أسلحة الدمار الشامل.

وكانت باكستان قد ملكت من قبل أسلحة نووية، وكانت ممسوكة في موقف متوتر، مع جارتها النووية، الهند.

وكانت أفغانستان، في الأرض الداخلية، تحت حكم الطالبان، هي القلعة الرئيسية للقاعدة.

وقال طوني ممازحاً وهو ينهي إيجازه: "هل أنت متأكد من أنك تريد هذا العمل، يا توم؟"

"لقد كنت أتطوع للأعمال الصعبة طوال حياتي، يا سيدي"

وفي هذا الاجتماع تعلمت مدى الأهمية الحيوية التي ستكون عليها سياسة "الالتزام" لمنصبي الجديد. أي، إقامة علاقة ثقة شخصية مع قادة الحكومات والقادة العسكريين في المنطقة.

وقال طوني: "يا توم، سوف تشرب شاياً كثيراً في هذا العمل، وفودكا في بلاد الستانات. ولكنها تستحق حرقة القلب عندما تستطيع أن ترفع الهاتف في تامبا وتتحدث مباشرة مع رئيس وزراء أو ولي عهد، مع رفع الكلفة، ومخاطبته بالاسم الأول."

سبق للمؤلفة دانا بريست أن وصفت طوني زيني مرة بأنه الحاكم الإقليمي العصري، سليل السياسي المحارب الذي حكم الأراضي النائية من الإمبراطورية الرومانية. ذلك كان هو الرجل الذي راقبته في ذلك اليوم في مكتبه: سياسي كان يعرف ويفهم قادة هذه المنطقة المشحونة شحناً عالياً وكان راغباً في المشاركة ببصائره عنهم. وبعض هؤلاء القادة، كنت قد قابلتهم مثل الرئيس المصري حسني مبارك وملك الأردن عبد الله. ولكني لم أكن أمتلك معرفة مباشرة بقيادة آسيا الوسطى. ولذلك فقد أنصت باهتمام، طوال ساعة تقريباً، وطوني يشرح عن النخبة السياسية والعسكرية للجمهوريات التي تخلى عنها الاتحاد السوفيتي السابق.

ثم إنه بطريقته المباشرة، طرح رأيه بأخطر التهديدات والتحديات التي يمكن أن نواجهها في السنوات العديدة القادمة.

"هذه المنطقة لن تكون مستقرة إلى أن يكون هناك تسوية سلام عادل بين إسرائيل والفلسطينيين."

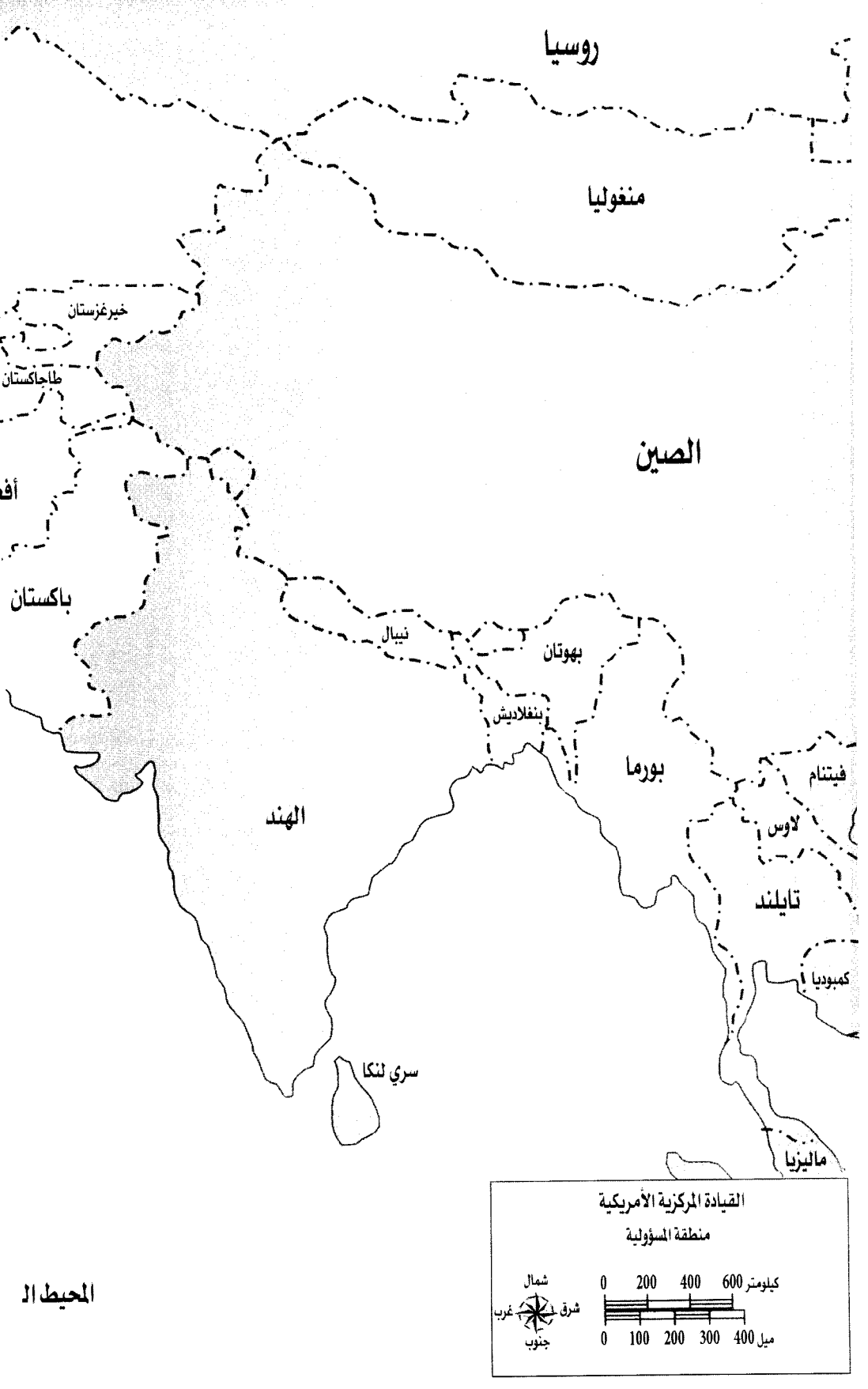
روسيا
منغوليا
خيرغزستان
طاجاكستان
الصين
أف
باكستان
نيبال
بهوتان
بنغلاديش
بورما
فيتنام
لاوس
تايلند
كمبوديا
الهند
سري لنكا
ماليزيا
القيادة المركزية الأمريكية
منطقة المسؤولية
شمال
غرب
شرق
جنوب
0 200 400 600 كيلومتر
0 100 200 300 400 ميل
المحيط ال

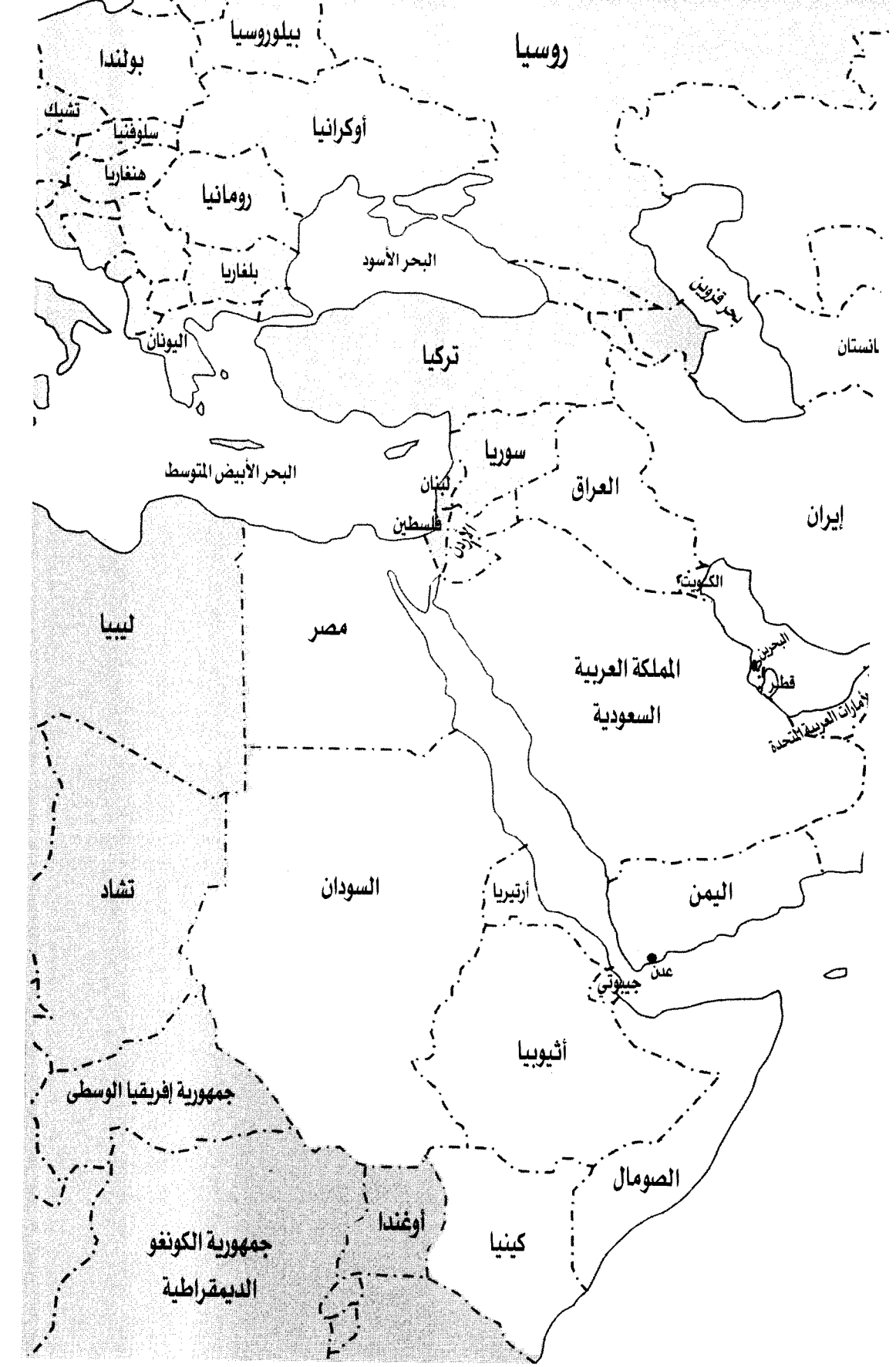
روسيا
بيلوروسيا
بولندا
أوكرانيا
تشيك
سلوفاكيا
هنغاريا
رومانيا
بلغاريا
البحر الأسود
بحر قزوين
اليونان
تركيا
سوريا
العراق
إيران
البحر الأبيض المتوسط
لبنان
فلسطين
الكويت
ليبيا
مصر
البحرين
قطر
المملكة العربية السعودية
السودان
تشاد
أرتيريا
اليمن
عدن
جيبوتي
أثيوبيا
جمهورية إفريقيا الوسطى
الصومال
أوغندا
كينيا
جمهورية الكونغو الديمقراطية

وفكرت، في أن احتمالات حدوث ذلك في أثناء نوبتي هي احتمالات غير جيدة، ما لم تمد الولايات المتحدة الأمريكية يداً جادة في التوسط والاتفاق.

واستدار طوني بانتباهه إلى العراق. ناقشنا ارتكاب صدام لمجزرة بحق ما يصل تقديره إلى 300.000 شيعي، وناقشنا حالة مناطق حظر الطيران ونجاح النظام كذلك في تهريب الزيت. وكان رأي طوني أن سياستنا الوطنية في الاحتواء كانت تعمل. ووافقت بأننا كنا "نحتوي" كل ما يحدث داخل العراق ونبقيه في حدوده. وكانت المشكلة في ذهني هي أننا لم نكن نعرف ما يكفي حول ماذا كان ذلك الذي يحدث.

وبعد أن أُجبر خبراء الأسلحة التابعون للأمم المتحدة على أن يخرجوا في العام 1998، أعلنوا أن صدام ربما يكون قد أنتج وخبأ آلاف اللترات من سموم الجمرة الخبيثة وجرثومة الباتشولاينم، وهو أكثر من كاف ليقتل كل إنسان على الأرض.

وألقيت نظرة على أفغانستان. "وماذا عن أفغانستان؟"

"دولة مخفقة. والطالبان أرجعوا الساعة إلى عصور الظلام. وأفغانستان هي ملاذ القاعدة. ونحن دمرنا بعض معسكرات التدريب في العام 1998، ولكن المجندين الإرهابيين من كل أنحاء العالم الإسلامي مستمرون بالتجمع."

"وماذا هناك غير ذلك يجب أن أبدأ بالقلق عليه؟"

ومد طوني يديه في تسليم وتخل: "أتمنى لو كنت أستطيع أن أخبرك. سوف تكتشف أن صورة استخباراتنا عن المنطقة محزنة تماماً. وهذا سبب آخر يجعل الالتزام مهماً جداً. نحن بحاجة هناك إلى الأصدقاء الذين يستطيعون أن يعطونا الصورة الحقيقية. أود أن أعرف الكثير عما يحدث في العراق، ومع أسامة بن لادن والقاعدة. ولكن الحقيقة هي أنني لا أعرف."

وهز طوني رأسه وقال: "يا توم، لا تفاجأ إذا لم تكن القيادة المركزية التي تقودها أنت هي نفسها القيادة التي قدتها أنا. إن اليقين الوحيد في هذه المنطقة هو اللايقين."

وعندما كنت أركب راجعاً إلى المطار لألحق بطائرتي متوجهاً إلى أتلانتا، كانت كلمات طوني ذات وزن ثقيل على ذهني. اليقين الوحيد في هذه المنطقة هو اللايقين.

كانت الأسابيع التالية لاستلامي القيادة في 7 تموز/يوليو 2000 أسابيع متّسمة، كما هو متوقع، بالانشغال الشديد. ومن منظور مكتب القائد المجهز تجهيزاً جيداً أثبتت القيادة المركزية أنها كانت منظمة أوسع وأكثر تعقيداً مما كنت قد تخيلت. ومفكرة قيادتي عن تلك الفترة تستثير مطلق الحجم وتعقيد المادة التي كان علي أن أعالجها.

في إحدى الأمسيات عندما كنت أجلس على مكتبي أفكر، وأنظم ملفات، وأنظر في الأوراق القديمة، عثرت على قصيدة كنت قد كتبتها عندما كنت نقيباً شاباً طموحاً في العام 1971:

امنحني:

- فرصة واحدة لأؤثر في مجرى التاريخ.
- وبعد النظر لتوقع هذه الفرصة.
- والاقتناع لأخطط لها.
- والجلَد لتنفيذ الخطة.
- وشدة الفعل لجعلها تعمل.
- والمرونة لتغييرها عندما لا تعمل.
- والولاء لنفسي للاعتراف بالهزيمة.
- والتواضع الذي يستحقه النصر.
- والإصرار على الاستمرار.

وتبسمت وأنا أقرأ الكلمات، التي كتبتها قبل ثلاثين عاماً تقريباً، وتذكرت الكلمة المأثورة "كن حذراً فيما تتمناه." فالزمن سيروي.

بعد تغيير القيادة مباشرة في تموز/ يوليو، اجتمعت مع قادة عناصر القيادة المركزية: الفريق بي. تي ميكولاشيك، خلفي في الجيش، القيادة المركزية، ونائب الأدميرال، اللواء البحري، ويللي مور، قائد عنصر الأسطول، وقائد عنصر القوات الجوية الفريق تشوك وولد، والفريق فرانك ليبوتي، من سلاح مشاة البحرية الأمريكية، قائد قوات البحرية في القيادة المركزية، وقائد العمليات الخاصة العميد البحري بيرت كاللاند، وهو خبير عمليات زمر القتال البرماجية (بر، ماء، جو، عصابات). كانوا قادة قديرين، وكلهم رجال خدمت معهم طوال السنين. فيما مضى كنا أنداداً، والآن سأكون رئيسهم. "الرجل العجوز." ولكنهم سيبقون أصدقاء.

في ذلك اليوم، عملنا في جدول أعمال طويل اشتمل على الإرهاب، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، ومناطق حظر الطيران في العراق، وحظر الملاحة البحرية، والتفاصيل الشائكة عن ترتيبات المعاهدة مع معظم الدول في منطقة المسؤولية.

وإحدى المشكلات التي ورثتها كانت تتعلق بقوات أسطولنا. كانت وزارة الدفاع تدرس تخفيض وجود مجموعة المعركة مع حاملة الطائرات كامل الوقت في شمال الخليج العربي إلى وجودها لجزء من الوقت، ثلاثة أرباع فقط من أي عام مفترض. ولكن ويللي مور وأنا اتفقنا أننا يجب أن نمتلك حاملة تحت يدنا لاثني عشر شهراً من كل عام لمساندة عملية الرقابة الجنوبية في منطقة حظر الطيران الجنوبية في العراق. وكنت أعرف أنه كان يجب علي أن أقوم ببعض الاتصالات لحشد التأييد في زيارتي التالية إلى وزارة الدفاع.

في وقت مبكر في 10 تموز/يوليو، قابلت مدير العمليات، في القوة الجوية اللواء ساندي ساند ستروم، ومدير استخباراتي، العميد الجنرال في الجيش كيث أليكساندر، لمناقشة خيارات الرد على الاستفزازات العراقية. في الوقت الحالي، إذا أطلق العراقيون النار على طائرة تحالف، فإن الرد النموذجي هو مهاجمة قطع نظام الدفاع الجوي المتورطة بالحادثة، أي، المدفع، أو قاذف الصاروخ أو جهاز الإرسال أو الرادار.

وقلت لساندي وكيث: "يبدو لي أننا سوف نحصل على قدرة أفعل إذا رددنا على نحو غير تماثلي." وبكلمات أخرى، فبدلاً من مهاجمة مدفع واحد عيار 23ملم زد اس يو أو قاذف صواريخ اس ايه-6، فربما سيكون لصالحنا أن ندمر بنى القيادة والسيطرة في ذلك القطاع.

وقلت: "إن هذا قد يجعل العراقيين يفكرون مرتين قبل إطلاق النار على أبنائنا في غرف القيادة."

ومن ذلك اليوم فصاعداً، ضغطت القيادة المركزية على بيروقراطية واشنطون من أجل المزيد من "الحركية" (تعبيرنا العسكري المعبر عن استخدام النيران القاتلة)، والمزيد من الردود غير القابلة للتنبؤ بها، والمزيد من الردود غير التماثلية على الخروقات العراقية في مناطق حظر الطيران. وقد ساند بل كوهين وهوغ شيلتون هذا المدخل الجديد، وبدأ طيارونا يخفضون قدرات الدفاع الجوي العراقي. ولكننا كنا نعرف أننا لا نستطيع أن نستأصل التهديد لملاحينا الجويين إلا بعد أن ندمر القيادة والسيطرة ومنشآت الرادار المتجمعة في بغداد وحولها. وكان طوني زيني قد فعل ذلك في عملية ثعلب الصحراء في 1998، ولكن هذه الدفاعات أعيد بناؤها مباشرة تقريباً. وكلما زدت تفكيراً فيها، صرت أكثر اقتناعاً بأننا كنا نحتاج إلى سياسة جديدة بشأن العراق.

لم يكن يهم أي الحزبين ربح انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر، فقد كنت أعرف أنه ستكون هناك قيادة جديدة في البيت الأبيض في كانون الثاني/يناير. وهكذا، فابتداء من 17 تموز/يوليو، طلبت من أركاني أن يعدوا سياسة خيارات في العراق، وهي التي سنقدمها إلى الإدارة الجديدة مباشرة بعد الانتخابات.

واقترحت وقلت: "يبدو لي أننا نمتلك ثلاثة مسارات ممكنة للعمل." الأول هو أن نحافظ على الوضع القائم بالاستمرار في مراقبتنا لمناطق حظر الطيران، وحظرنا للملاحة لمنع تهريب الزيت في تحدٍ لعقوبات الأمم المتحدة. وقلت: "ذلك هو احتواؤكم الأساسي."

والخيار الثاني سيكون هو التصعيد العمدي، باستخدام الردود غير التماثلية وغير القابلة للتنبؤ بها على الاستفزازات العراقية في مناطق حظر الطيران أو في البحر.

وطبعاً، هناك خيار ثالث، وهو ببساطة: أن ننسحب ونترك الموقف يتطور مع العراق.

وأخبرت أركاني: "نحن لا نعرف إلى أي اتجاه قد تأخذنا الإدارة الجديدة. ولكن الآن هو الوقت المناسب للبدء في تطوير الخيارات."

بعد أربعة أيام قابلت العقيد في الجيش غاري هاريل، الذي كنت قد وظفته لتوي مديراً للأمن المشترك في القيادة المركزية بعدما تمت التوصية به من صديقي لمدة طويلة الجنرال بيت شوميكر، الذي كان في ذلك الحين قائداً لقيادة العمليات الخاصة الأمريكية. وكان غاري على قائمة الترفيع لرتبة عميد جنرال ولديه سنوات من الخبرة في وحدات المهام الخاصة النخبوية من قيادة العمليات الخاصة المشتركة. ومنذ أواسط التسعينيات من 1990، عندما بدأ التهديد الإرهابي ضد الأمريكيين يتصاعد في المنطقة، كان المنصب مشغولاً بضابط من الشرطة العسكرية. ولكنني أردت ضابط عمليات خاصة في العمل، رجل مهام خاصة، شخصاً كان يفكر مثل تفكير رامٍ ويستطيع أن يدقق في قابلية منشآتنا للتعرض للخطر من منظور شخص سيئ ينظر إلينا من الخارج.

لقد ثبت أن ذلك كان قراراً جيداً. كان غاري يفهم الإرهاب من الوقت الذي كان فيه قائداً لوحدات المهام الخاصة في مقديشو في الصومال، في العام 1993 في أثناء القتال الوحشي الذي اشتهر في كتاب وفلم الصقر الأسود يسقط. وقام بتطوير إجراءات الحماية للقادة المرؤوسين وللجند في القيادة المركزية، وهي الإجراءات التي أنقذت طوال السنوات الثلاث التالية حياة مئات من الأمريكيين.

وفي كل يوم تقريباً تكلمت بالهاتف مع قادة أجانب مدنيين وعسكريين في المنطقة، وكنت أستوعب اهتماماتهم وأتعلم الطريقة التي يفكرون بها.

وبعد ذلك، في 22 تموز/يوليو، بدأت أول رحلة لي بصفتي القائد العام للقيادة المركزية إلى منطقة المسؤولية.

كان ضوء الشمس المنسكب على ارتفاع عال إلى الداخل على متن الطائرة قاسياً وأنا أمشي إلى الأمام عبر هيكل النفاثة في وميض ضوء الفلوريسنت الخافت. طائرة القائد العام للقيادة المركزية وهي طائرة القيادة والسيطرة نوع ئي سي-135 من القوات الجوية، هي عبارة عن طائرة بوينغ معدلة نموذج 1962، وليس لها نوافذ في الحجرة المقصورة على الطيار والملاحين.

ومن خلال نوافذ حجرة الطيار، ألقيت نظرة على يوم الأحد الساطع فوق بحر إيجة. وحييت الملاحين بنكتة كنت ما زلت أستغلها منذ أيامي في قوات الجيش، القيادة المركزية (الجيش الثالث): ؛هل نحن هناك حتى الآن؟"

وقال الطيار، وهو الرائد بل نيكولس من القوات الجوية، وهو ينظر إلى ساعة رقمية على لوحة أجهزة القياس: "صباح، أيها الجنرال، في الواقع، بعد الظهر. الساعة 1405 في اليونان. وكان هناك حوالي ساعة من الليل خلفنا فوق الأطلسي."

لقد أقلعنا من قاعدة القوات الجوية في ماكديل في حوالي الساعة 800 مساء، في مساء يوم سبت رطب غائم. وبعد إحدى عشرة ساعة و 98 درجة من خط الطول لاحقاً، كنا نطير عبر أصيل ساطع متوسطي صيفي نحو خليج سودا على ساحل جزيرة كريت. وستكون هذه هي وقفتنا للاستراحة في رحلة سوف تحملنا إلى كينيا، والخليج العربي، ومصر. وإلى لقاء تمهيدي هادئ مع رئيس كينيا دانيال أراب موي، ستتبعه محادثات أكثر جوهرية مع القادة الكينيين والعرب المدنيين والعسكريين. وكما ألمح طوني زيني كنت على وشك زيادة مدخلاتي من الشاي.

انزلقت إلى الكرسي الفارغ المقابل للملاح وانحنيت إلى الأمام لأتفرس في منظر الرادار. ومن موقع مشرف للنظر من نقطة على ارتفاع 33000 قدم، كانت جزر اليونان جمهرة من نقط مضيئة خضراء على شاشة الرادار إلى الشمال والشرق، مع الحجم الطويل لكريت إلى الجنوب.

وأنزل الطيار المساعد الجناح الأيمن ليدور. ومن خلال واقية الريح رأيت جبال الجزيرة ترتفع بنية وضخمة إلى الأمام منا. وجاءت كاثي إلى منطقة الملاحين ووضعت يدها على كتفي. وأشرت للأسفل إلى بحر إيجة الأزرق من بين المحركات البارزة.

وقلت، وأنا أفكر بالأوديسا: "بحرك الأساسي الغامق كالخمر".

وقالت بوجه لا تعابير فيه: "أنت رجل بيرة، يا توم."

وتبسمت وضغطت على يدها. إن منصبي الجديد قد أثبت حتى الآن أنه أيام طويلة من الاستعراض، وليال قصيرة، ولكن إحدى الميزات له هي أنني كنت قادراً على إحضار كاثي معي في هذه الرحلات الرسمية. لقد كان مهماً أن يراها نظرائي بوصفها امرأة أمريكية متزنة، ومتعلمة، وشريكتي، ونموذجاً للأخريات في منطقة كانت النساء فيها يبرزن ببطء إلى الحياة العامة. وكان مهماً لي أن تكون إلى جانبي.

وجاء لمعان خفيف خافت فوق الأفق الجنوبي، كانت تلك مصر ومدخل السويس إلى البحر الأحمر. وانعطفنا ثانية، مبتدئين اقترابنا نحو القاعدة البحرية الأمريكية في خليج سودا. وفرقعت أذناي، لقد كان هيكل ضغط الطائرة قد جمع ساعات كثيرة منذ العام 1962. حتى أني ربما أكون قد سمعت هذه النفاثة نفسها في بنه بهوك في العام 1967، وهي تهدر من دون أن تكون مرئية فوق غيوم المونسون. ولكن هذه الطائرة منذ ذلك الوقت قد جددت باستمرار، فالأجنحة نفسها، وهيكل الجسم نفسه، ولكن عليها جناح اتصالات بعرض نطاق ترددات ينافس ذلك الذي يوجد على الطائرة الأولى في القوات الجوية. وسمحت لي وصلات اتصال الطائرة المأمونة عبر الأقمار أن أتحدث أو أتبادل البريد الإليكتروني المصنف مع مقري في تامبا، ومع وزارة الدفاع ومع البيت الأبيض، وعملياً مع كل قيادة أمريكية وعسكرية حليفة في العالم. وتستطيع الطائرة أيضاً أن تعيد التزود بالوقود في أثناء الطيران، وهو ما يسمح لنا أن نطير لعدة أيام إذا دعت الضرورة، شريطة أن ينال الملاحون النوم الكافي في الأسرة الموجودة على متنها.

ونظرت إلى الخارج من خلال النوافذ اليسرى من حجرة الطيار نحو الجزر السمراء المصفرة إلى الشمال. كانت إحداها ديلوس، وهي مكان ميلاد أبوللو، المركز الثقافي والتجاري للعالم لعدة قرون. كان الكوكب أصغر بكثير آنئذ، وكانت الآفاق مسدودة.

في تموز/يوليو2000، طبعاً، تلاشى حد الآفاق. وفي مقصورة الاستخبارات من هذه الطائرة، كنت أستطيع أن أدرس صور الأقمار لأي بقعة تقريباً من الأرض أو البحر على هذا الكوكب. وكان ذلك مورداً لم يكن يستطيع أن يتخيله الحاكم الروماني القنصل سكوروس(*)، الذي قطع الشرق الأوسط جيئة وذهاباً في القرن الأول الميلادي، على الرغم من كل الفيالق التي كان يقودها.

ومثل سكوروس، سوف أُدعى، في الشهور القادمة، لممارسة أصول سياسة الدولة والدبلوماسية. في أثناء الليالي في ميادين التدريب في ألمانيا، وفي الخيام في الصحراء السعودية، وفي سلسلة من غرف الفنادق وسكن الضباط العزاب، كنت قد قرأت عن الحرب والسلم على حد سواء: الحكمة المتراكمة من صن تزو، وكلاوزفيتز، وبرترام (هكذا) رسل(**)، وغاندي. وكان ما وصل بالتدريج واضحاً في ذهني هو أن الحرب اشتملت على متسلسلة متصلة من التفاعل بين الأمم، والفئات، والقبائل. وعبر عرض هذه المتسلسلة المتصلة أدركت خمس حالات متميزة من التفاعل. وهي حالات صنفتها بخمس كلمات تبدأ كلها بحرف سي(***) باللغة الإنجليزية.

(*) سكوروس: (١٦٣ - ٨٨) قائد روماني لعب دوراً سياسياً وعسكرياً وكان مسؤولاً عن تموين روما بالحبوب.

(**) والأرجح أنه يقصد برتراند راسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠) نال جائزة نوبل للأدب في ١٩٥٠. وهو فيلسوف، ورياضي، وناقد اجتماعي بريطاني أثر في تطور المنطق الرمزي والفلسفة التحليلية في القرن العشرين.

(***) Cooperation, Collaboration, Co-existence, Crisi, Conflict

في إحدى نهايتي الطيف هناك النزاع، وفيه تشتبك في القتال القوات المسلحة لأمتين أو أكثر. وذلك النزاع يكون عادة قد بدأ من أزمة، وهي توتر غاضب بين الخصوم. التعايش هو خطوة واحدة أبعد، أي، أن البلاد أو القبائل التي يمكن أن تكون متعادية تغلبت على عداواتها لتعيش جنباً إلى جنب. والعمل المشترك هو مسعى تعمل فيه الأطراف نحو منفعتها المشتركة. وأخيراً هناك التعاون الفعال وهو أكثر العلاقات إيجابية: الحدود المفتوحة، والمشاريع التجارية والحكومية المشتركة، والانسجام والتقدم.

لقد ولدت في العام 1945، قرب نهاية أكبر نزاع في التاريخ. وفي فترة حياتي، انتقل المتقاتلون الكبار في الحرب العالمية الثانية من نهاية المتسلسلة المتصلة إلى النهاية الأخرى: من النزاع إلى التعاون.

في كل نقطة، في المنطقة الواقعة تحت ذلك الأفق المتوسطي الضبابي، كانت الأمم ممسوكة في نزاع أو في أزمة، أو على أفضل الأحوال، في التعايش. وستكون مسؤوليتي هي أن أساعد على تحريك هذه الدول إلى أبعد حد ممكن على المتسلسلة المتصلة لهذه المفاهيم الخمسة: من النزاع إلى الأزمة إلى التعايش وإلى ما وراء ذلك. لم أكن أعرف إمكانياتي للنجاح. ولكنني كنت مصمماً على أن أحاول.

قلت: "إنه لشرف أن أقابلك يا صاحب السمو." وكانت مصافحة ولي العهد الأمير عبد الله(*) شديدة، وعيناه لامعتان. قال لي: "كيف حالك ياجنرال؟ وكيف حال الرئيس؟". فأجبته بتقدير واحترام بأن كل شيء على ما يرام.

خارج النوافذ العالية للقصر الصيفي السعودي في جدة، كان البحر الأحمر يلمع في الحرارة. ولكن غرفة الاستقبال كانت باردة بفضل فتحات تكييف الهواء المخفية خلف سواتر جميلة. ومن إبريق أنيق، ملأ الخادم فنجاناً، من بورسلان، كان موضوعاً أمامي بالشاي.

(*) خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز.

كان هذا هو اليوم العاشر من رحلتي، وهذا هو البلد الرابع الذي زرته. في كينيا تعلمت عن التاريخ الحديث لتلك الأمة من الجفاف والكارثة الطبيعية، وفي الكويت، والبحرين، وقطر، استعرضت مع القادة العرب التهديد المتنامي للإرهاب، والتهديدات التي تفرضها العراق وإيران، وحالة التعاون العسكري.

وعبد الله، مضيفي اللطيف في المملكة العربية السعودية، كان هو حاكم الأمر الواقع للأمة. فهو نائب لأخيه، الملك فهد نظرا لظروفه الصحية... وكان سياسياً حسن الاطلاع وازن بعناية بين مكانتين، بوصفه حاميا لأقدس بقاع الإسلام، وراعيا لاحتياطي هو أكبر احتياطيات الزيت في العالم. العالم الصناعي يحتاج إلى الزيت السعودي، والمملكة العربية السعودية تحتاج إلى الدرع العسكري. وعلاقة دول الخليج مع الولايات المتحدة قامت صداقتها على الاحترام المتبادل...

وجود القوات العسكرية الأمريكية في المملكة العربية السعودية، كان، على الرغم من أنه قسم صغير من قوتها في أثناء حرب الخليج، مثيراً دائماً لانزعاج السكان السعوديين... وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1995، فجر إرهابيون سيارة مفخخة في بعض المساكن الخاصة بالمستشارين، في الرياض، وقتلوا خمسة أمريكيين. وبعد سبعة شهور، في حزيران/يونيو 1996، دمرت شاحنة ضخمة مفخخة الثكنة الأمريكية في أبراج الخبر في الظهران. وقتل تسعة عشر من أفراد الخدمة وجرح المئات. وفي أعقاب هذه الحوادث، زادت المقاومة السعودية الرسمية لوجودنا العسكري.

لقد كنا ندخل في مرحلة سماها قادتي المرؤوسون "الموت بألف جرح." وعلى الرغم من أن معظم الأفراد العسكريين الأمريكيين في المملكة العربية السعودية كانوا قد نقلوا إلى مواقع نائية مثل قاعدة الأمير سلطان الجوية في الصحراء الخالية جنوب الرياض، بقي الاحتكاك الثقافي طريقة حياة في المملكة العربية السعودية. وكانت إحدى القضايا تتعلق بإصرار السعوديين على أن تلبس الجنديات الأمريكيات العباءة، وهي ثوب أسود بطول المرأة الكامل، عندما يكُنّ خارج القاعدة. ولم أكن سعيداً

بهذا الأمر. إن فكرة أن تكون المرأة في الصباح مستعدة للمخاطرة بحياتها في مهمة قتال ضد الدفاعات الجوية العراقية في مناطق حظر الطيران، ثم يكون عليها بعد العصر أن تلف نفسها في عباءة إذا ظهرت في مكان عام، هي فكرة بدت لي بوصفها واحداً من آلاف الجروح، جروح صغيرة ولكنها جروح ذات معنى بالنسبة إلى الاحترام بين أمتينا.

وكان هناك المزيد من المشكلات الصعبة في علاقتنا. فالكثير من السعوديين نظروا إلى أمريكا بوصفها راعية إسرائيل والحليف غير المنطقي، وهي تستحق اللوم على قدم المساواة في قمعها للفلسطينيين (...).

على أية حال وبعد أن تبادلنا التحيات الرسمية، تحدث ولي العهد عما في ذهنه عن تضييق إسرائيل لقبضتها على القدس، وهو ما اعتبره تهديداً لوصول المسلمين إلى المسجد الأقصى، ثالث أقدس البقاع في الإسلام.

وأضاف: "الأخبار عن أن أمريكا قد تفتح أخيراً سفارتها في القدس هي أخبار مقلقة، فهذا سيكون اعترافاً رسمياً بالاحتلال الإسرائيلي الكامل للمدينة المقدسة."

لقد سبق لي أن تلقيت إيجازاً عن هذا الموضوع، ولكنني كنت ما أزال جديداً في الدبلوماسية، ولم أعتد بعد على التحدث بالموارية وقلت: "سيدي، إن موقف الولايات المتحدة هو أن تساند السلام بين إسرائيل والفلسطينيين. والرئيس يعمل بجد ليرى المفاوضات وقد استؤنفت."

وقال عبد الله: "كان يمكن أن يكون لأمريكا العديد من الأصدقاء في العالم الإسلامي. ولكن إسرائيل تقسمنا. وما لم يكن هناك سلام، فإن الإرهاب سينتشر حول العالم."

وقلت: "يا صاحب السمو، الإرهاب ينتشر مثل السرطان. ونستطيع كلنا أن نعمل بجد أكبر لإيقافه. أمريكا، والمملكة العربية السعودية..."

ومد يديه بالقبول، ثم تبسم: "نرجو الله أن يعطينا العقل والمنطق. وأنا متأكد أننا سنعمل جنباً إلى جنب لإيقاف انتشار الإرهاب."

"سيدي، لك مني التزامي بأن أكون صديقك وشريكك. " وكسرت قواعد البروتوكول، ومددت يدي، على طريقة ميدلاند.

وصافحني ولي العهد الأمير عبد الله. "سمعنا عنك الكثير، يا جنرال."

"آمل أن يكون بعضه صحيحاً."

"كثير منه جيد." ووقف. كان اللقاء ينتهي. "ولدينا آمال كبيرة."

وفي تلك الليلة على متن الطائرة، استرجعت في تفكيري أعمالي المفضلة في الحياة العسكرية: قيادة لواء، وقيادة فرقة، وقيادة جيش ميداني. عمل جندي صريح واضح.كان عالمي قد بدأ يصير أكثر تعقيداً بكثير.

رطوبة صيف واشنطون لم تكن تبدو سيئة بعد حمام البخار في الخليج العربي والبحر الأحمر. أمضيت قسماً من صباح الخميس 10 آب/أغسطس في وزارة الخارجية أقدم إيجازاً عن رحلتي لوزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت. إنها مستمعة جيدة، وسألت أسئلة عميقة الفكر، وأسئلة سابرة، على الرغم من أنها كانت تعرف أنها في أشهرها النهائية في فترة توليها وزارتها، مهما تكن النتائج التي قد تأتي بها الانتخابات الرئاسية.

في وزارة الدفاع، زرت رؤساء الخدمات، آملاً في أن أبني أساساً للثقة والمساندة المتبادلة. وكان طوني زيني قد حذرني من أن رؤساء الأركان في الجيش والقوات الجوية، ورئيس عمليات الأسطول، وقائد سلاح مشاة البحرية كانوا غالباً مرتابين، وحاسدين قليلاً بلا شك، للقائد العام الإقليمي. و"القادة المقاتلون." معظم جنرالات النجوم الأربع، رتبة فريق أول، كانوا يودون أن يقودوا قوات في زمن الحرب، ولكن قانون غولدووتر- نيكولس أبعد رؤساء الخدمات إلى دور المساندة والمشورة. الخدمات تقدم الجند، والمواد، والسفن والطائرات، وهم "يُزوَّدون بالموارد" ليقوموا بواجباتهم بموجب القانون العاشر من النظام الأمريكي.

وبكلمات أخرى، القادة المقاتلون الإقليميون يعتمدون على"مجتمع القانون العاشر"(*)، أي، فروع الخدمات المسلحة المنفصلة، من أجل الحصول على الجند، والأسلحة، وجميع اللوازم التقليدية "الرصاص والفاصولياء"(**) اللازمة للعمليات العسكرية. ورؤساء الخدمات بموجب القانون العاشر يمكن أن يكونوا معاكسين غير مرنين للفاصولياء.

ولكن القادة العامين هم الذين كانوا يقاتلون في الحروب. وسلسلة قيادتي كانت تسير مباشرة إلى وزير الدفاع والرئيس. كنت أعرف ذلك، ورؤساء الخدمات كانوا يعرفونه.

لقد أمضيت خمسة وثلاثين عاماً وأنا أحاول أن أتجاوز وألتف حول مشكلة الرعاية الضيقة التي تبديها الخدمة، والآن، وبصفتي قائداً عاماً، رأيت كيف أثر ذلك النوع من التفكير الضيق حتى على المستويات العليا من التخطيط العسكري. وعندما بدأت أعمل في تقدير احتياجات القوة اللازمة للقيادة المركزية، صار واضحاً لي أن كل واحدة من الخدمات كانت تركز على كسب الحرب - وحدها. كانت الخدمات تُمَوَّل بوصفها كيانات مستقلة، وليس لديها أدنى ميل حقيقي لتقاتل معاً بوصفها جزءاً من فريق مشترك. وفي أثناء مدة خدمتي في كوريا، عملنا بجد على " الاشتراك معاً" ولكن عملياتنا كانت بعيدة جداً عن أن تكون كاملة. وإذا كنا نريدها أن تكون صحيحة في القيادة المركزية، فقد كنت محتاجاً إلى أن أمضي وقتاً طويلاً مع الأركان المشتركة ومع رؤساء الخدمات. كنا نحتاج إلى التدريب معاً، وأن نفكر معاً، لنخطط معاً.

في وقتي القصير في هذه القيادة، كنت أعرف من قبل أن علاقات أمريكا مع الأمم الواقعة في المنطقة كانت علاقات هامة بشكل حيوي. فنحن نحتاج إلى

(*) هو القانون الذي يحدد الملاكات والقوة النهائية لكل خدمة وصنف من القوات المسلحة.

(**) تعني الأسلحة، والذخائر، والتجهيزات، والإمدادات العسكرية، والمواد.

الأصدقاء والحلفاء في كل مكان نقوم فيه بعمليات عسكرية، وخصوصاً في نطاق منطقة المسؤولية التي تتولاها القيادة المركزية. كان يجب علينا أن نبني الثقة والتصديق، وهو نوع التصديق الذي لا يمكن أن يستمر إلا من خلال الدبلوماسية الشخصية وبمساعدتنا لهذه البلدان على أن تحل مشكلاتها المزمنة.

إن طائرات القوات الجوية من نوع سي-17 التي تنقل جواً مستشفيات ميدانية، وخياماً، وبطاطين، وطعاماً إلى بلد دمرته هزة أرضية تستطيع أن تكسب من القلوب والعقول أكثر من ألف ساعة من إذاعات الدعاية. وكان أحد التحديات التي تواجهني هو إقناع رؤساء الخدمات أن هذا العمل كان مهماً.

وعندما كنت أمشي في الحلقة ئي(*) من وزارة الدفاع، توقفت وكتبت ملاحظة لأخبر أركاني متى رجعت إلى تامبا. "يحتاج القائمون على الخدمات إلى التفكير في علاقتهم الحقيقية بالعالم الذي نعيش فيه وإلى أي مدى يمتّون له."

المجاعة والجفاف في شرق إفريقيا، والإيدز الوبائي المتفشي في تلك القارة السيئة الحظ، والاقتصادات الراكدة عبر الكثير من دول منطقة مسؤوليتنا، إضافة إلى التدهور البيئي المنتشر عبر المنطقة، كلها مشكلات خطيرة، وكل واحدة من هذه المشكلات كانت تهديداً خطيراً محتملاً للأمن القومي لأمريكا يساوي في خطورته القوات العسكرية المعادية. سوف يحتاج رؤساء الخدمات إلى أن يبدؤوا بالتفكير وفق هذه الخطوط غير التقليدية.

ولكن كان يجب علي أيضاً أن أحافظ على الرؤساء سعداء، لأنهم زودوا قيادتي بالجند، وبالطائرات وبالسفن. والخدمات الإفرادية كانت مسؤولة عن تمويل القيادات المقاتلة. القوات الجوية قدمت تمويل القيادة المركزية، والجيش مول القيادة الأوروبية، بينما سيطر الأسطول على ميزانية قيادة المحيط الهادئ. وفكرت أن هذه طريقة صعبة لإدارة العمل. ولكنني كنت قائداً عاماً جديداً. وعما قريب سأكون حكيماً في معرفة طرق عالم القانون العاشر.

(*) وزارة الدفاع الأمريكية مقسومة إلى الحلقات ايه، بي، سي، دي، ئي.

كانت زيارتي لرئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الجنرال في الجيش هوغ شيلتون سارة ومُعلِمة. لقد سبق أن عرفت هوغ منذ أيامي في الجيش، القيادة المركزية في الجيش الثالث، عندما كان هو القائد العام لقيادة القوات الخاصة الأمريكية. هوغ طويل وخشن مع رنة من كارولينا في صوته، وكان قد خدم نوبتَي قتال في فيتنام، في القبعات الخضر وبصفة قائد سرية مظللين، قبل أن يترفع باستمرار في مسؤوليات القيادة. وكان بعض الناس يخطئ أحياناً فيظن أن طريقة هوغ الجنوبية اللطيفة في الكلام هي نقص في الفكر. غلطة كبيرة. هوغ شيلتون فهم القوات العسكرية وفهم سياسات الطريق الدائري على النحو الصحيح مثل أي واحد من داخل واشنطون، من عسكريين أو مدنيين.

عندما ذكرت لهوغ أن أركاني قد خططوا لزيارة مكتبية بعد العصر مع ريتشارد كلارك، المتخصص في مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي، تجهم وجهه.

وقال: "يا توم، إن الوزير كوهين يفضل أن ينسق القادة العامون اتصالاتهم مع كبار المسؤولين المدنيين من خلال مكتبه. وهذا يصدق بشكل خاص على ديك كلارك."

وأنصتُّ. فواشنطون على مستوى القائد العام كانت أرضاً جديدة.

وأضاف هوغ: "إن كلارك قد أمضى في مجلس الأمن القومي مدة طويلة إلى درجة صار يَظن معها أنه يمتلك موضوع مكافحة الإرهاب، وأنه يعرف عن الموضوع أكثر من أي شخص آخر في الحكومة. وهو يحب أن يتكلم، ويذكر الكثير من الأسماء، ويعجب بنفسه كثيراً. ولكنه في طرق عدة ليس عملياً جداً. كن حذراً في التعامل معه."

وشكرت هوغ على إظهار اليقظة.

كانت أمانة السر لدى كلارك قد أخبرت أركاني أنه سيراني في "مكتبه في البيض الأبيض." ولكن سائق وزارة الدفاع أخذني إلى مبنى المكتب التنفيذي القديم.

وهو منشأة منفصلة متصلة بالجناح الغربي. وفكرت، إنها نقطة صغيرة، وأنا أصعد الدرج المرمري إلى مكتب كلارك.

وقال: "الجنرال فرانكس" وهو يقف من خلف طاولته ليصافح يدي ويهزها. ثم انحنى للخلف ليغلق ملفاً كان على طاولته وهو ملف أسرار عليا/حساسة كانت أطرافه برتقالية.

وفكرت، إنه واع أمنياً. وهي صفة جيدة في اختصاصي مكافحة الإرهاب.

وتحدث كلارك بسرعة وبشدة، وكأنه كان يمتلك معلومات مستعجلة كانت حيوية لمهمتي. وذكرني بشعره السلكي الأشيب، المقصوص قصة قصيرة، وبعينيه السوداوين السابرتين، وبسلوكه الحاد، بممثل لعب دوراً حكومياً عالياً في معالجة أزمة خطيرة.

كان الموضوع هو القاعدة وطالبان. وبدأ كلارك بمراجعة الاستخبارات المتوافرة، التي كانت حديثة ولكنها كما يمكن التنبؤ لم تكن دقيقة. وصف نجاح ضربات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي في العام 1998 على أفغانستان، ولكنه لم يقل أي شيء عن الضربة ضد مصنع الأسلحة الكيماوية المشكوك فيه في السودان. وفكرت أن هذا، مثير للاهتمام. كان هناك ارتباك حول تلك الضربة، مع عدد من قصص الأخبار التي توحي بأنها كانت مبنية على استخبارات مغلوطة وأن المنشأة السودانية لم يكن لها علاقة مع الأسلحة الكيماوية. وتعجبت إن كان كلارك قد حسب أنها كانت نجاحاً أيضاً.

ثم ناقشنا بعد ذلك الإمارات العربية المتحدة، وهي اتحاد من سبع من دول الزيت الخليجية الصغيرة، الغنية غنى كبيراً والتي قدمت (هي والمملكة والعربية السعودية وباكستان) اعترافاً دبلوماسياً وعوناً مالياً إلى طالبان.

وأخبرني كلارك عن علاقاته الشخصية الحميمة مع العائلة المالكة في أبوظبي. ووصف لي الاتصال المباشر بين الإمارات العربية المتحدة وبين طالبان،

وأخبرني أن قناة الاتصال هذه قد أثبتت أنها مساعدة جداً له في العمل في "مشكلة بن لادن."

وأنصتُّ دون تعليق.

وسألت عن معلومات الاستخبارات التي تُروى عن القاعدة. وأخبرته: "يا ديك، بالنسبة إلى القيادة المركزية، فهي كي تبني خططاً عملياتية واقعية، فإننا نحتاج إلى معلومات استخبارات قابلة للاستعمال: فصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي سوف تضرب الإحداثيات الدقيقة التي تبرمَج في أنظمة الدلالة في تلك الصواريخ. ولكن التقارير التي تتحدث عن الكهف الذي يظن أن بن لادن كان قد نام فيه الأسبوع الماضي هي معلومات لا تنتج هدفاً. في نهاية المطاف نحن نكتشف اتجاهاً، ولكننا كي نضربه فنحن نحتاج إلى معلومات في الزمن الحقيقي."

وابتسم كلارك ابتسامة العارف، ووصف "التقانات" التي كان يعتقد أنها ستساعد في مواجهة المشكلة.

وفهمت في الحال أنه كان يشير إلى المركبة الجوية من دون طيار من نوع بريديتر (المفترس)، فهي طائرة استطلاع بدون طيار تستطيع أن تطير ببطء، فوق الأرض المعادية لعدة ساعات وهي تبث شريط صور(فيديو) عالية النوعية، في الزمن الحقيقي، ليلاً ونهاراً. وكانت وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية تعمل على تسليح البريديتر بنظام صواريخ هيلفير. وهي أداة تحمل إمكانية قوية، كما أعتقد، حتى عندما ذكّرت نفسي بحكمة مأثورة قديمة: "من الخطر أن تخلط بين الرغبة والقدرة." وتعجبت إن كان ديك كلارك قد سمع أصلاً بهذا التعبير.

كنت مهتماً بتدمير تهديد القاعدة. ولكن زيارتي إلى كلارك لم تنقلني لتضعني ولو أقرب قليلاً إلى الهدف. وغادرت مكتبه مؤملاً أن تشديدي على الحلول العملية للمشكلات الحقيقية سوف يستحثه على التوجه نحو بعض فرص التهديف الحقيقي. ولكني ارتبت في أن يكون ديك في تحديده للمشكلة أفضل منه في إيجاد حل قابل للعمل.

في صباح يوم خميس في أواخر أيلول/ سبتمبر 2000، جمعت كبار مديري أركان القيادة المركزية في مكتبي في تامبا لاستعراض الموقف العملياتي للقيادة نحو القاعدة.

القائد المساعد لي، وهو الفريق البحري مايكل "رايفل" دولونغ، جلس في كرسي بمسندين إلى يميني، بينما شغل العميد في الجيش كيث أليكساندر واللواء في القوات الجوية ساندي ساند ستروم الأريكة الجلدية. وعدد من الاختصاصين من منشأة الاستخبارات الحساسة المقسمة إلى حجيرات متجاورة نصبوا كراسي تُطوى. وازدحمت طاولة القهوة بمجموعة من الأكواب القديمة المبقعة وفناجين معزولة من عصر الفضاء.

وسألت كيث أليكساندر: "هل سبق لنا مطلقاً أن امتلكنا أي معلومات استخبارات بشرية تساوي... فأراً من أفغانستان؟"

وقال لي: "سيدي، أتمنى لو كنت أستطيع أن أخبرك بأننا امتلكنا. ولكن الحقيقة هي أننا لم نمتلك. لقد كان لدينا تقارير دورية من أناس محليين كانوا يعملون أحياناً مع الوكالة، ولكن لم نحصل أبداً على أي شيء قريب من الزمن الحقيقي."

ووقف توم إيكرت مستشاري الخاص ليتحدث، وهو ضابط كبير في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ويشكل صلة الوصل المباشر لي مع مدير الوكالة جورج تينت. "معظم الأشخاص المفيدين للوكالة في أفغانستان هم من تحالف الشمال." ثم ذهب إلى خريطة تعبوية. "في الأعلى هنا، بالقرب من حدود أوزبكستان، وطاجيكستان. والقاعدة أقوى سيطرة في الجنوب، مع وجود الطالبان في منطقة الباشتون حول قندهار وجلال آباد."

وتابع كيث أليكساندر: "وكما تعرف، يا سيدي، فإن تحالف الشمال هو زواج بفوهة البندقية أكثر مما هو تحالف. إنهم في الحقيقة جماعة من مليشيات قبائل

البانجشيريين، والطاجيك، والأوزبك التي يحافظ عليها الجنرال أحمد شاه مسعود من خلال موهبته القيادية."

وأومأ أركاني برؤوسهم معبرين عن موافقتهم.

وأضاف توم إيكرت "لدى وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية بعض الناس معهم يقدمون لهم بعض الأرصدة المالية والمواد، وفي المقابل، يقاتل الحلف ضد الطالبان. ولكن كيث على حق. فالمشكلة هي أن تأثيرنا موجود في الشمال. ونحن أقل تأثيراً ونفوذاً مع الباشتون في الجنوب. والعديد من قادتهم يقيمون في باكستان، وليس هناك معارضة متماسكة في أفغانستان الجنوبية. إننا متألمون من المعلومات الاستخباراتية البشرية هناك تماماً."

وقلت: "فهمت."

كان جمع المعلومات الاستخباراتية البشرية مشكلة منذ عمليات التطهير في خدماتنا الاستخباراتية بعد فيتنام. ففي أواخر السبعينيات من 1970. بدأت وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية ووكالة الأمن القومي بالتركيز على الاستخبارات "الفنية": على صور من الطائرات والأقمار، وعلى اعتراض الاتصالات الإليكترونية. نستطيع أن نقرأ لوحة رخصة السيارة من الفضاء، ولكننا لا نعرف شيئاً مفيداً عن الناس الذين هم في داخل السيارة. ونستطيع أن نتنصت على مكالمة هاتف خليوي جوال في طهران، ولكننا لا نملك أي فكرة عمن يتكلم.

ومنذ كنت مرشحاً في مدرسة الضباط المرشحين في فورت سيل، كنت قد أدركت أهمية التصويب الدقيق على الهدف. ومثل كل القيادات المقاتلة فإن القيادة المركزية كانت تمتلك خططاً للطوارئ. فالضربات الجوية باستخدام صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي وبالقاذفات التي يقودها طيارون، ضد أهداف القاعدة في أفغانستان كانت من بين خططنا. مشكلتنا كانت التصويب على الهدف- التصويب في الزمن الحقيقي.

مَشْغل عمليات ساندي ساند ستروم كان قد رسم سلسلة من خيارات مجموعة أهداف القاعدة، استندت إلى الصور وعلى الاستخبارات الإليكترونية. وشملت هذه الأهداف معسكرات التدريب المعروفة أو المحتملة، وما أسميناه متفائلين باسم منشآت "الضيوف"، وهي بعض البيوت والمكاتب التي اعتقد مجتمع الاستخبارات أن أسامة ومساعديه يقومون بالعمل فيها من حين إلى آخر. ومتابعة القاعدة من خلال اعتراض الاتصالات لم يبق سهلاً بعد الآن. في السابق كان أسامة بن لادن قد استخدم هاتف الأقمار لكل شيء، ابتداء من نشر قواته في مواقعها إلى التحادث مع أمه في المملكة العربية السعودية. ولكن أسامة تخلى عن هذا الاستخدام بعد تسرب أخبار صحفية كشفت عن أن ضربات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي في آب/ أغسطس 1998 بعد تفجير السفارات في شرق إفريقيا، قد استهدفت آخر موقع معلوم لهاتفه. والقاعدة الآن كانت تستخدم مجموعة من أجهزة اتصال سوفيتية قديمة، وبعض الأجهزة ذات الموجة القصيرة الجانبية النطاق المفردة، ومجموعة من أجهزة بث لاسلكية من موتورولا على موجة المواطن، وبريد إليكتروني مرمّز يسير عبر مقاهي الإنترنت في العالم الثالث دون اسم معروف، وتستخدم بلا شك المراسلين على الطريقة القديمة الذين يحملون الرسائل.

وبعد أن أخذت بالحسبان نوعية استخباراتنا، لم أكن مقتنعاً بأننا كنا نستطيع أبداً أن ندمر القاعدة باستخدام صواريخ كروز والضربات الجوية وحسب. ولكنني وجهت جماعة عمليات ساندي إلى أن يعملوا بشكل وثيق مع نائب الأدميرال، اللواء البحري، ويللي مور، وهو قائد عنصر الأسطول معنا، لتحسين أزمنة الرد لرماتنا على صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، لمجرد الاحتياط إذا ما حدث شيء.

إذا كان يتوجب علينا مطلقاً أن نشن هجوماً فعالاً ضد القاعدة، فقد كنت أعرف أننا سنحتاج إلى عمليات أرضية. سيكون علينا أن نذهب إلى الداخل، ونحصل على المعلومات الاستخبارية، ونتصرف بناء عليها. ولكن أي غارة بقوات العمليات الخاصة يجب أن تكون قوية قوة كافية لتهزم حلقة قوات الأمن التي كانت

تحيط بأسامة بن لادن ومساعديه وهي قوات مسلحة تسليحاً كثيفاً، ومن الذين صلّبتهم المعارك. وهذا النوع من العمليات سوف يتطلب وحدات مهام خاصة، والسماح بالطيران فوق بلاد أجنبية، وتصاريح للتمرحل، ومعلومات استخباراتية دقيقة دقة كافية لتقول لنا إلى أين "نصوب" عناصرنا الذين نعمل على إدخالهم. والأهم في مثل هذه العملية، هو أنها تحتاج إلى قرار جاد يرسم سياسات. وكنت أعتقد أننا نستطيع أن نعالج متطلبات التمرحل والطيران فوق بلاد أجنبية، أما الموافقة القومية على شن عملية قوات عمليات خاصة عالية المخاطر في داخل أفغانستان، وفي غياب معلومات استخبارات صلبة، قابلة للعمل بموجبها، فقد كانت غير ممكنة في عصر ما بعد مقديشو.

وعلى الرغم من هذه العوائق، سوف نعمل في هذه المشكلة. وكنت أعرف أن باكستان تقيم علاقات ممتازة مع طالبان، ولاسيما مديرية الاستخبارات بين الخدمات الباكستانية على وجه الخصوص. وستكون خطوتي القادمة هي أن أزور إسلام أباد وأجتمع مع الرئيس الباكستاني برويز مشرف. كانت قواته العسكرية بحاجة إلى المساعدة وكذلك نحن. ربما كنا نستطيع أن نعقد صفقة.

وأخبرت الأركان أننا كنا بحاجة إلى أن نبني علاقات أقوى مع مكتب الاستخبارات الفيدرالي، ومع وكالة الاستخبارات المركزية، ومع وزارة الخارجية. ومهما تكن مشكلات هذه الوكالات، فهي تضم أناساً جيدين، والكثير منهم يمتلكون فهماً واسعاً للمنطقة، ونحن بحاجة إلى الاستفادة من كل ذخر في ترسانة أمريكا.

وقلت والاجتماع ينفض: "لا أعرف عنكم أيها الرجال، ولكنني أحتاج إلى كل العون الذي أستطيع أن أحصل عليه."

إن نقص المعلومات الاستخبارية المفيدة، التي تصل في وقتها عن القاعدة، امتد إلى ما وراء معرفتنا المحدودة عن ملاذهم في أفغانستان. كنا نعرف أن القاعدة كانت تشكل لها خلايا، لا عبر كل العالم الإسلامي وحسب، بل في أوروبا وحتى في أمريكا الشمالية كذلك. وبناء ذلك النوع من البنية التحتية السرية يكلف مالاً. وكانت

الولايات المتحدة وحلفاؤنا في أوروبا على حد سواء يمتلكون تشريعات سارية لتجميد الأصولية الإرهابية المعروفة ووقف تدفق التحويلات المصرفية بين المنظمات التي لها علاقة معروفة بالإرهاب. ولكن إذا أخذنا بالحسبان عجز المؤسسات المالية في العالم عن وقف تدفق دولارات المخدرات، فإني لم أكن مؤملاً بالكثير. وكان سيتوجب علينا أن نمارس الضغط على السعوديين بشكل أشد وعلى الدول الأخرى التي سمحت لملايين الدولارات المدفوعة في تبرعات خيرية أن تتحول بسهولة إلى حسابات القاعدة. ولكن هذه الدول لم تشعر بعد بالاستعجال نفسه الذي كنا نستشعره في الولايات المتحدة.

وأضفتُ مسألة تمويل الإرهاب إلى قائمة الموضوعات التي يجب أن أناقشها في أثناء تناول فناجين الشاي في منطقة المسؤولية، وهي قائمة كانت تنمو وتطول وأنا أستعد لأطير راجعاً إلى المنطقة في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 2000. وكانت تنفجر ثورة فلسطينية جديدة تعرف بالانتفاضة الثانية، وكانت حرفياً تنفجر في الضفة الغربية وفي قطاع غزة. وجنود قوات إسرائيل الدفاعية يقاتلون الفلسطينيين المسلحين ببنادق الكلاشينكوف في شوارع الأراضي المحتلة، والمدنيون الإسرائيليون يموتون في انفجارات القنابل الانتحارية.

في يوم الأربعاء، 11تشرين الأول /أكتوبر، اليوم السابق لمغادرتي، تحدثت مع جورج تينت، مدير وكالة الاستخبارات المركزية عبر هاتف اس تي يو-111، وهو هاتف أسرار عليا مرمّز، وهو هاتف نقطة إلى نقطة وكان يخدم بوصفه صلتي الصوتية مع واشنطون. ونظراً إلى أن وقفتي الأولى في منطقة المسؤولية ستكون في باكستان، فكنت أود أن أناقشه في طريقة اقترابي من الرئيس مشرف.

وقلت: "يا جورج، إن باكستان، عملياً، سوف تستمر في "التكيف" مع طالبان إلى أن نكون قادرين على عرض بديل أفضل. إن مشرف واقع بين أمرين كلاهما صعب بين صخرة وبين مكان قاس : الهند وتعديل بريسلر."

في العام 1985، أقر مجلس الشيوخ تعديلاً لقانون المساعدة الأجنبية، الذي

قدمه عضو مجلس الشيوخ لاري بريسلر، وحظر بموجبه معظم العون الاقتصادي والمساعدة العسكرية لباكستان ما لم يقدم رئيس الولايات المتحدة سنوياً شهادة بأن باكستان لم تكن تعمل في الأسلحة النووية ولم تكن تمتلك أسلحة نووية. وصار القانون مسألة فيها نظر في أيار/مايو 1998، عندما أعلنت باكستان أنها قد فجرت خمسة أسلحة نووية بصفة رادع لترسانة الهند النووية الكبرى.

وقلت لجورج: "مشرف جندي. ومثله معظم اللاعبين الأساسيين في حكومته. وعليك أن ترى عالمهم من منظور عسكري."

"أنا أنصت، يا توم."

"أفغانستان تقدم لباكستان ما نسميه (العمق الإستراتيجي). أي فضاء معركة لتناور، وتساند القوات المسلحة الباكستانية في حالة قيام حرب أخرى مع الهند."

وقال جورج: "ذلك ما يقوله لي جماعتي أيضاً."

والمشكلة مع قبول باكستان لطالبان، طبعاً، هي أن هذا القبول كان يعني، امتداداً لحكومة مشرف ضمناً، القبول بالملاذ الآمن الذي كانت أفغانستان تقدمه إلى القاعدة.

"وأنا أود، يا جورج، أن أجد طريقة عملية لمشرف ليمارس نفوذه على طالبان لتضغط على بن لادن."

"نحن نعمل على هذا بجد، يا توم."

"إذا كنت موافقاً، فسوف أنسق مع رئيس محطتكم في إسلام أباد."

"أنا موافق. سوف نعملها معاً."

وخططت أن أقترح رافعة للاستمالة في إسلام أباد، وهي أن الولايات المتحدة قد تساعد باكستان، ضمن حدود بريسلر، على تحديث قواتها التقليدية، وبهذا تقلل اعتمادها على الأسلحة النووية.

ونظراً إلى أنني أويت إلى الفراش متأخراً في تلك الليلة، ملأت بطاقتي

اليومية عن التحديات والفرص للصباح التالي قبل الإخلاد إلى النوم. وعلى جانب التحديات، وكان ذلك تقريباً فكرة طارئة، كتبت: "تذكر حماية القوات."

رن هاتفي في الساعة 0514 صباحاً.

وقلت وأنا أتدحرج خارجاً من السرير: "اللعنة، إن الأخبار الجيدة لا تأتي أبداً قبل السادسة صباحاً."

وقال نائب الأدميرال، اللواء البحري، ويللي مور، وهو قائد عنصر الأسطول، وكان يتحدث من المنامة في البحرين: "جنرال، أخبار سيئة جداً. كان هناك انفجار على ظهر مدمرتنا، السفينة الأمريكية كول، في خليج عدن، في اليمن."

كانت عدن عند الحافة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، قرب فم البحر الأحمر. لقد كانت ميناء تجارياً منذ زمن إسكندر الكبير.

"وما هو الموقف الحالي، يا ويللي؟"

وروى: "الاتصال مع السفينة سيئ، ولكننا نعرف أنه كانت هناك خسائر في الأرواح. وفي الطريق إليهم فريق بحري للاستجابة السريعة من الخليج، والزمر الطبية تطير إليهم من البحرين ومن أوروبا." إن الانفجار الخطير على ظهر سفينة حربية سوف يتضمن ضحايا حروق، والزمن حيوي. وكان هناك أيضاً بعض الحلفاء في المنطقة الراغبين في المساعدة. وأخبرني مور: "القوات العسكرية الفرنسية وقوات البحرية قد استجابت من جيبوتي. وقد يكونون هناك من قبل." كان الفرنسيون يحتفظون بوحدة قوية من البحرية والقوات الأرضية والجوية في مستعمرتهم السابقة جيبوتي مقابل مضيق باب المندب من اليمن. وعلى الرغم من أن علاقاتنا مع حكومتهم لم تكن دائماً ودية، فقد كان العسكريون الفرنسيون مواطنين أشداء. وخصوصاً في حالة طارئة مثل هذه.

"أي فكرة عن السبب، يا ويللي؟."

"مبكر جداً لنعرف بالتأكيد. ونحن نظن بالإرهاب."

"شكراً. أرجو أن تبقيني على علم. سأعلم واشنطون."

كانت الشمس تشرق عندما وصلت إلى مكتبي. وكان رايفل دولونغ قد سبقني إلى المكتب مع كدس رقيق من الرسائل حول كول.

وقلت وأنا أتسلم التقارير: "جهز فريق عمل الأزمة، يا رايفل."

"لقد عملت ذلك من قبل، وهم يحزمون آخر اتصالاتهم الآن تماماً."

ما كنت لأطلب قائداً مساعداً أفضل من رايفل دولونغ، فهو قائد مقاتل في الحرب وواحد من أمهر المديرين الذين قابلتهم في البزة العسكرية. وهو مثل العديدين من جيلنا، فقد كَبُر من شابٍ إلى رجلٍ في وحل فيتنام، وكنت أثق بحكمه، وأقدر مشورته.

أحد الإيجازات عن الموقف الذي جمعه رايفل كان صفحة حقائق عن اليمن. وكان هذا البلد من أكبر البلدان إثارة للاهتمام في منطقة المسؤولية، وهي منطقة غير عادية بشكل قاطع. وفي الحقيقة كان اليمن أمة موحدة لحوالي عشر سنوات فقط، بعد أن برزت من واحد من أكثر النزاعات الأهلية شراً في فترة الحرب الباردة. فبعد أن كسب استقلاله من الحماية البريطانية، قام اليمن الشمالي وهو قبلي على نحو عال وإسلامي على نحو عنيف بشن حرب أهلية مع اليمن الجنوبي، وهو مستعمرة بريطانية سابقة مركّزة حول ميناء عدن. مصر ناصر ساعدت الجنوب، والمحافظون العرب ضخوا السلاح والمتطوعين إلى الشمال. وفي أواسط الستينيات من 1960، كان الصراع متسماً بالمجازر وباستخدام الأسلحة الكيماوية، ولم تبرز اليمن جمهورية واحدة موحدة في الظاهر، وعاصمتها صنعاء في الشمال القبلي إلى أن جاء العام 1990. وعلى الرغم من أن الصراع لم ينته نهاية كاملة أبداً، كانت هناك علامات أمل: فقد بدأ اليمنيون حديثاً يوجهون العون الدولي إلى بعث عدن بوصفها ميناء تجارياً وقد بدأت الولايات المتحدة بإعادة تزويد السفن الحربية بالوقود في مرفأ عدن.

وأشار تقرير موجز عن الموقف أن كول كانت قد خططت للقيام بوقفة لإعادة التزود بالوقود في عدن في صباح 12 تشرين الأول/أكتوبر. ولم تكن هذه الوقفة زيارة رسمية للميناء، يجري فيها تبادل المجاملات الرسمية بين العسكريين من الطرفين. وبدلاً من ذلك، ارتبطت كول بشكل مأمون مع دولفين عائم لإعادة التزود بالوقود وهو جسر عائم مفصول فصلاً جيداً عن المراسي الحجرية القديمة وكاسر الأمواج لتحصل على الوقود قبل أن تتابع الذهاب إلى الخليج العربي الشمالي.

ومع تقدم الصباح، تدفقت إلينا بعض المعلومات القاسية. وتحدثت مع هوغ شيلتون، وأعلمته أن فريق الرد السريع البحري، وهي طائرة إخلاء طبي من نوع سي-130، وزمر طبية عسكرية فرنسية كانت الآن تصل إلى عدن. وقلت له : "مازلنا لا نعرف سبب الانفجار."

وناقشت أنا وهوغ وضع حالة التهديد في عدن في الوقت الذي وصلت فيه كول. وشرحت: "إنها كانت في برافو، ب، ولم تكن هناك مؤشرات عن زيادة في التهديد."

تتصاعد مستويات التهديد في تسلسل شدتها من ألفا، أ، عندما لا يوجد تهديد إرهابي مرئي، صعوداً إلى دلتا، د، التي تشير إلى خطر هجوم وشيك. وكان مستوى التهديد برافو، ب، هو الحالة السائدة في معظم موانئ منطقة المسؤولية، ولم يكن لدى قبطان كول سبب يجعله يشك بالهجوم عندما أدخل سفينته إلى دولفين التزود بالمحروقات.

وعلى الرغم من أنه، حتى في وقت متأخر من الصباح، لم يكن هناك أي تأكيد رسمي بأن إرهابيين قد هاجموا السفينة، فإن وسائل الإعلام كانت تروي الأخبار بأن كول قد ضربت بقنبلة إرهابية. وأخبرت شيلتون ونائب رئيس الخدمات، الجنرال في القوات الجوية ديك مايرز، في سلسلة سريعة من المكالمات: "إن ويللي مور يقول في تقاريره إنه لا يستطيع أن يستبعد هجوماً إرهابياً. ولكن التحقيق قد بدأ من فوره بالتقدم. وسوف يعطينا ويللي الحقائق من دون مبالغة."

وعلق هوغ: "وسائل الإعلام صارت تلح على طلب الأخبار هنا وهم دائماً يفعلون ذلك."

نظرت إلى التلفاز في ركن مكتبي. كانت محطة سي إن إن تقدم تغطية بلا توقف، وتدير شريطاً من الملفات عن السفن الحربية النوعية وعن الهجمات الإرهابية السابقة، ومن جملتها تدمير السفارة الأمريكية في شرق إفريقيا.

وعلقت قائلاً لمايك دولونغ: "عامل سي إن إن، يا رايفل." فمنذ حرب الخليج، وانتشار شبكات أخبار الكيبل والأقمار، صار التنافس على تغطية "السبق" من محطة إخبارية واحدة تنافساً تعصبياً مسعوراً. وصارت أي حادثة غير مألوفة ولها إمكانية "بصرية" جيدة هي العنوان الرئيس. وسواء أكان ذلك العنوان الرئيس صحيحاً أم لم يكن، فإنه يصير حقيقة واقعة في رؤية الجمهور العام. وقد لا يكون القادة العسكريون قد أحبوا هذا الاتجاه، ولكن كان يجب علينا أن نتعايش معه.

في بداية فترة ما بعد الظهر، تحدثت مع الأدميرال فيرن كلارك، رئيس العمليات البحرية في وزارة الدفاع، حيث كان يستعد لمؤتمر صحفي.

وقلت: "لا ينبغي لنا أن نصف، يا فيرن، أكثر مما نعرف. دعنا نتجنب التخمينات ونعرض الحقائق التي نحن متأكدون منها فقط."

وقال: "يا توم، أنت لا تفهم واشنطون. لقد رأيت تقارير التغطية، إن وسائل الإعلام ستأكلنا أحياء ما لم نعطهم شيئاً ما."

وقلت: "الموقف ما يزال غير واضح، يا فيرن. أقترح أن نتمسك بالحقائق. تذكر الحكمة المأثورة القديمة: (التقارير الأولى من الكشافة تكون مخطئة دائماً)."

كان العميد غاري هاريل مدير الأمن عندي، يقوم بتقدير قابلية المنشآت في المملكة العربية السعودية للتعرض للخطر. وكنت أحتاج إليه على الأرض في اليمن. وقلت له: "اذهب إلى هناك، يا غاري، أريد أمناً مشدداً حول تلك السفينة. عاملها مثل مشهد جريمة، لأن ذلك بالضبط ما هو المشهد."

كانت وزارة الخارجية تستعد لترسل إلى هناك فريق مساندة طوارئ أجنبي، وربما سيكون من جملته محققون من فرع الاستخبارات الفيدرالية. "اعمل مع فريق مساندة الطوارئ الأجنبي على الأرض، يا غاري. واحتفظ بعينيك مفتوحتين وكن على قمة الأمور. فهذا سيسوء أكثر قبل أن سيتحسن أكثر."

وأنهيت مكالمتي مع غاري عندما وصل أول تقرير عن الإصابات: تأكد موت خمسة بحارة، وعدد من البحارة مفقود. وقد قام الفرنسيون بإخلاء معظم المجروحين جروحاً حرجة إلى جيبوتي، منقذين بذلك حياتهم من خلال سرعة التدخل ومهارته. نحن مدينون لهم بواحدة مقابل ذلك.

قبل الساعة 00:3 بعد الظهر بقليل، هاتفت هوغ شيلتون مرة أخرى وقلت له: أنا على وشك المغادرة متوجهاً إلى منطقة المسؤولية. وأول توقف لي هو في عُمان. وقد ألغيت بقية برنامج الرحلة. ولكنني سأكون في المنطقة وسأصل إلى اليمن في غضون يومين أو ثلاثة. فآخر شيء يحتاجون إليه الآن فوراً هو جنرال بأربع نجوم يقف في طريقهم، ولكن من المهم أن يتحرك القائد العام إلى صوت المدافع، الجند يحتاجون إلى ذلك، وأنا أحتاج إليه.

"نحن لدينا موقف فيه الكثير من التوتر، طنجرة ضغط، هناك مع وسائل الإعلام، يا توم"

"ألم قصير المدى، ربح طويل المدى، يا هوغ."

من هذه النقطة فصاعداً، سيكون هناك تياران منفصلان للمعلومات: أحدهما سلسلة حساسة سياسياً للمؤتمرات الصحافية في واشنطون، والآخر تحقيق احترافي وعرض للحقائق كما تبرز.

وقلت: "يا هوغ، أنا أوصي أن تقترح لوزير الدفاع أن يكون هناك تحقيق خارجي كامل، شيء ما يشبه تحقيق وين داوننغ في تفجير أبراج الخبر في المملكة العربية السعودية. يجب علينا أن نتجنب أي تصور للتغطية على ما حدث."

قبل المغادرة إلى المطار، كنت قد جعلت الأركان يبدؤون بجمع كل التصريحات التي قيلت عن الحادثة من القيادة السياسية، ومن جملتها عضو مجلس الشيوخ جون وورنر، رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ. لقد سبق أن ذهبت إلى مجلس الشيوخ ثلاث مرات أشهد على الميزانية الروتينية والمسائل العملياتية، وأظن أن مجلس الشيوخ سيعقد جلسات استماع عن هذه الحادثة. وقد وجهت رايفل دولونغ أيضاً إلى أن يجمع معاً ورقة معلومات واضحة تقوم على الحقائق عن الإجراءات العملية التي استخدمت لاختيار عدن لتكون مرفأ إعادة التزود بالوقود وتفاصيل الأسباب التي دعت كول للوقوف هناك.

وبعد أن بدأت وسائل الإعلام تطارد ذَنَبَها في هذا الموضوع، فستكون كل السكاكين قد شحذت. ومن سوء الحظ، أن البحث عن كبش فداء بعد وقوع المآسي كان جزءاً من شخصيتنا القومية. ولذلك، كان من الأساسي لنا أن نعرض الحقيقة بلا تزويق في حزمة واضحة، دقيقة، تصف وصفاً دقيقاً مستوى التهديد الإرهابي في عدن في زمن الهجوم، وتصف إلى جانب ذلك الأسباب العملياتية لوقفة إعادة التزود بالوقود، وذلك ضمن حدود تصريح إذاعي لمدة عشرين ثانية.

صعدت على متن الطائرة النفاثة الرمادية القديمة لرحلة الطيران المتجهة إلى مسقط في عمان، في الركن الشرقي من شبه الجزيرة العربية. وفي الطريق، استعرضت ملف القراءة عن الخلفية العامة وتقارير الموقف المعدة لي من أركاني المسافرين معي، ومن بينها تقارير من ويللي مور في عنصر البحرية في القيادة المركزية، ومن غاري هاريل، الذي كان قد وصل من قبل إلى عدن، ومن رايفل دولونغ الذي رجع إلى تامبا، ومن هوغ شيلتون في وزارة الدفاع.

لقد كان واضحاً وضوحاً مؤلماً: الإرهابيون ضربوا كول. وهي مدمرة من نوع بيرك تحمل صواريخ موجهة، وتصل في حجمها إلى ضخامة العديد من طرادات الحرب العالمية الثانية، وقد دخلت ميناء عدن يوجهها طيار محلي. وقامت زوارق صغيرة بمساعدة ملاحي كول بتأمين خطوط ربطهم إلى دولفين إعادة التزود

بالوقود. وقام القبطان، وقد أعطي مستوى التهديد برافو، ب، بوضع حراس مسلحين على السطح. وكانت مجموعة أسلحة كول، وهي مجموعة من أنظمة مدافع آلية متعددة السبطانات عيار 20 ملم، تقف مستعدة ضد أي هجوم جوي. وإعادة التزود بالوقود نفسها لم يكن فيها أي مشكلة تذكر. ولكن عندما كان الملاحون يستعدون لمغادرة الدولفين، قام قارب طويل مسطح القعر له مظهر قارب نموذجي للقمامة بالتحرك ببطء عبر المرفأ.

ولوح الشابان العربيان الواقفان على دفة القارب بأيديهما عندما اقترب القارب من جهة الواجهة المائية من كول. وعندما وصل قارب القمامة قرب مركز السفينة كول أشعل الرجلان قنبلة ضخمة كانا قد خبآها تحت مظهر خادع. وكان للانفجار قوة صاروخ كروز، فنسف حفرة واسعة في هيكل المدمرة، وخرب العديد من السطوح الداخلية. وأدت موجة صدمة اللهب إلى إزالة مركز السفينة، وضرب الطاقة الكهربائية، وتدمير خطوط الماء اللازمة لإطفاء الحريق. وبدأ الماء يفيض إلى السفينة.

وآخر تقرير عن الإصابات حمل تحديثاً للمعلومات: اثنا عشر قتيلاً معروفون، وخمسة على الأقل مفقودون في المقصورات التي فاض إليها الماء. والعشرات مجروحون وكثير منهم مصابون بحروق حرجة.

أطفأت الضوء الموجود فوق مقعدي وحاولت أن أنام قبل الهبوط في عُمان. ولكن النوم أبى أن يأتي. هذا الهجوم حمل بصمات أصابع القاعدة. لقد لزموا الهدوء طوال شهور، ولكن كان من الواضح أن الكثير من التخطيط قد بذل في هذه العملية. كيف سيرد البيت الأبيض؟ كان رايفل دولونغ يحدّث حالة قاذفات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي في "سلة الرمي" من بحر العرب الشمالي. ولكنني كنت أعرف أن مواقع القاعدة التي سبق أن استهدفناها في أفغانستان ستكون مهجورة إذا كان أسامة بن لادن، في الحقيقة وراء هذا الهجوم. وفي كل الأحوال، سوف تستغرق الحقائق بعض الوقت لتظهر. وهناك انتخابات قومية في غضون أقل من

شهر. ولم أكن متأكداً كيف سترد أمريكا. ولكني توقعت أن توضع القيادة المركزية في العصّارة السياسية. وسوف أكون أنا في وسطها.

أمضيت ثلاثة أيام على الأرض في عُمان، وبقيت على اتصال مستمر مع رايفل دولونغ، وويلي مور، وهوغ شيلتون، وغاري هاريل الذي أبقاني مطلعاً على أحدث المعلومات من عدن. وكانت الحكومة اليمنية في إنكارها، تحاول أن تطلق تحقيقها الخاص، ولكنها غير قادرة ثقافياً على مجاراة الطلبات المقدمة من المحققين الأمريكيين المدنيين والعسكريين الذين يصلون ومعهم من الحمل قَدر ما تستطيع الطائرة أن تحمل.

لقد حزن العمانيون لخسارتنا، ولكنهم أظهروا علامات القلق من أن هذا الهجوم الإرهابي الأخير قد يؤدي إلى التقليل من عزمنا والتزامنا نحو المنطقة. وقد أكدت لوزير الدفاع أن أمريكا باقية على تصميمها على أن تكون قوة إيجابية في المنطقة، وأن موقفنا لن يهتز. وحملت الرسالة نفسها إلى معسكر الصيد الصحراوي لسلطان عمان قابوس بن سعيد آل سعيد.

كان قابوس، وهو عاهل عربي نموذجي، رجل ثقافة، بلحية علاها الشيب، وبعمامة حريرية زعفرانية، وأثواب من صوف مغزول غزلاً دقيقاً. كانت تعازيه مخلصة. وقال بلغة إنجليزية لا تشوبها شائبة: "يا جنرال، أمتكم تكبدت خسارة كبيرة. والعالم العربي في حداد. كيف نستطيع أن نساعدكم؟"

"يا صاحب السمو، إن صداقتكم مساعدة كبيرة."

"تلك الصداقة ستكون لكم دائماً، يا جنرال فرانكس."

وحدقت في عينيه السوداوين الذكيتين. لم يكن هناك أي مكر، ولا جدول عمل سري. سلطان قابوس سيكون صديقاً، وحليفاً موثوقاً في أثناء الأوقات العصيبة التي تنتظر أمامنا في المستقبل.

وقفت على السطح الذي شتته الحرارة من كول، وحدقت إلى الأسفل في

الحفرة الموجودة في جانب السفينة. وشرح لنا القبطان، القائد كيرك ليبولد، طبيعة العطب، والمقصورات التي مات فيها البحارة، والحالة الحالية للمصابين بالجروح. لقد عمل البحارة خلال هذه الحرارة المنهكة لمدة اثنتين وسبعين ساعة، محافظين على سفينتهم عائمة. كانوا جميعاً منهكين، والعديد منهم ما يزال يعاني من الصدمة. وكان المرفأ متألقاً ساطع الضوء، وخفقت نسمة شديدة رطبة بالعلم الأمريكي الكبير المرفرف على جسر السفينة. وكانت رائحة نتن السخام، واللحم المحروق، ومخزن زيت الوقود مما لا يطاق. وعندما كنت أمشي عبر السفينة،لم يكن هناك إلا القليل مما أستطيع أن أفعله أو أقوله لأخفف الألم الذي رأيته على وجوه البحارة. وفكرت مسترجعاً أيامي في فيتنام، وقد طفرت الدموع من عيوني، دموع الاحترام، والإعجاب، والشعور بالندم. واسترجعت مذاقاً لِسَوْرة الغضب. كنت قد أحسست بها منذ زمن بعيد.

في ذلك الأصيل جلست في القصر الجنوبي للرئيس اليمني علي عبد الله صالح. كان مهزوزاً، وليس على يقين بأي نبرة يلهج وينضبط، وكانت السفيرة الأمريكية بربارا بودين قد اقترحت أن أبقى هادئاً وأنصت لما سيقوله صالح. وكان هذا الاجتماع هو تقديمي لصالح للتعارف. ولذلك قررت أن أبدأ الاجتماع مثلما اقترحت السفيرة. وإذا كان مخلصاً فسأكون متعاوناً.

وعندما بدأ يتحدث، كنت أستطيع أن أرى أنه كان مهتماً بأن يكون بحارة كول قد تم إسكانهم بشكل كافٍ. وهل كانوا في الواقع مقيمين على ظهر السفينة المعطوبة، في هذه الظروف التي لابد أنها تعيسة؟ وكنت أعرف أن هذا الاهتمام براحة الضيوف لم يكن مظهراً خادعاً للغربيين، لقد كان مغروزاً بعمق في الثقافة العربية. وأكدت للرئيس أن البحارة موضع اهتمام كبير وأن القبطان كان يقوم بعمل جيد. وكنا فخورين به، وبضباطه، وبالبحارة.

وأضفت: "سيدي الرئيس، إن الوزير كوهين طلب مني أن أشكرك على كل ما فعلت لنا. إنها بداية جيدة."

بدا الرئيس وقد استرخى: "لقد كانت لنا دائماً علاقات جيدة مع بلدك، مع شوارتسكوف ومع زيني. أنا فقط متأسف أن الصداقة بينك وبيني قد بدأت تحت هذه الظروف."

وقد طرح صالح هذه النقطة كأنها سؤال لا تصريح. ولذلك بذلت عناية كبيرة كي أعيد طمأنته: "سيدي، إن صداقة أمريكا مع اليمن راسخة ولن تهتز بسهولة. وسوف نعمل معاً. يجب أن نتبادل ونشترك بالمعلومات. جماعتنا قد عملوا بداية جيدة في التحقيق في هذه المأساة، ولكنها بداية فقط. إن علاقتنا سوف تنمو لأن ذلك أفضل مصلحة لبلدينا كليهما."

وتشاور الرئيس صالح باختصار مع الرسميين الجالسين إلى جانبه إلى طاولة ضخمة مرصعة بالفضة والنحاس. "هناك الكثير من التصريحات المربكة، والاتهامات في صحافتكم. إن هذا يزعجنا. إننا نعمل أقصى ما نستطيع للمساعدة."

وقلت: "وصحافتنا تزعجنا نحن كذلك، يا سيدي." وأنا أنظر في عينيه.

ووعد أن يساعد التحقيق، ملاحظاً أنه قد شكل لجنة خاصة. وكنت أعرف أن اليمنيين سيعرفون الحقيقة، وكان علينا أن نتأكد أنهم سيتشاركون فيها معنا.

وقلت: "سيدي الرئيس، من المهم جداً أن تقوم لجنتكم بتقديم كل الأدلة التي تكتشفها إلى محققينا."

ووقف الرئيس صالح وناولني شريطي صور فيديو وملفاً بلاستيكياً يحتوي على بطاقات الهوية للعديد من العرب. وقال: "هذه أشرطة تلفازية من آلاتنا للتصوير في الميناء. قد تكون مُعِينة. وبطاقات الهوية تعود إلى رجال نحن متأكدون أنهم كانوا متورطين في هذا الهجوم الرهيب."

وأخذت الدليل، ملاحظاً الزمن كي أستطيع تسجيله لأغراض "سلسلة العهدة." إن مكتب الاستخبارات المركزية له سمعة سيئة في دقته بالتوثيق "مَنْ ملك أي دليل، ومتى" في أثناء تحقيقاتها. كان صالح يعمل لكسب ثقتي، وقد عمل بداية جيدة.

بعد عشرة أيام جلست تحت وهج أضواء التلفاز في غرفة استماع لجنة الخدمات المسلحة في مجلس الشيوخ. وإلى جانبي عند طاولة الشاهد كان وولتر سلوكومب، وكيل وزارة الدفاع لشؤون السياسات، وإدوارد ووكر، مساعد وزير الدولة لشؤون الشرق الأدنى.

وكان رئيس اللجنة هو عضو مجلس الشيوخ جون وورنر، وهو جمهوري من فرجينيا، وقد ضبط صوته في نبرة معقولة يلهج بها في جلسة الاستماع العامة هذه، وهو يعطينا فرصة لنشرح للأمة لماذا كانت كول في اليمن؟ ولماذا لم تتنبأ وزارة الدفاع والقيادة المركزية مقدماً بالخطر الذي واجه السفينة؟ وسوف نغطي هذه الأرضية مرة ثانية في جلسة مغلقة، نستطيع من خلالها أن نناقش السجل المصنف السري مناقشة كاملة. ولكن، وكما عرفت من أيامي في قوات الجيش، القيادة المركزية (الجيش الثالث) بصفتي قائداً، وفي مدة خدمتي القصيرة في القيادة المركزية بصفتي القائد العام، كانت جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ ترتبط بالسياسة أكثر من ارتباطها بعرض الحقائق.

الحقائق، التي بينتها في ملاحظاتي الافتتاحية، كانت مباشرة نسبياً. فالقيادة المركزية كانت تحتفظ بوجود بحري قوي في المنطقة، ومن جملتها مجموعة معركة مع حاملة طائرات واحدة على الأقل في الخليج العربي الشمالي وعدد من السفن المقاتلة والمساندة الأخرى تتمركز في البحرين. وهذه السفن وصلت إلى المنطقة في رحلات مرور طويلة من موانئ الساحل الأمريكي الشرقي والغربي. ومدمرة صواريخ موجهة مثل كول سارت بسرعة حوالي 25 عقدة، واستخدمت الكثير من الوقود. وقد دعت الإجراءات العملياتية البحرية السفن الحربية أن تصل إلى مناطق عملياتها وهي تملك 51 بالمائة على الأقل من سعتها ممتلئة بالوقود. ولذلك كان روتيناً لأنواع معينة من السفن الواصلة إلى النهاية الجنوبية من البحر الأحمر في طريقها إلى الخليج العربي أن تقف في اليمن لملء خزاناتها بالوقود.

قبل العام 1999 كانت سفننا تتزود بالوقود في جيبوتي، ولكن ثبت أن ذلك كان

إشكالياً: فرصيف التزود بالوقود كان قديماً ضعيفاً وغير مأمون، وكان المرفأ مزدحماً بالسفن التي تنتظر لتتزود بالوقود. وفي إحدى المرات على طول رصيف الميناء ذاك في جيبوتي، كان معدل المضخة بطيئاً وكان الوقود في مرات عديدة ملوثاً بالماء إلى درجة أن السفينة الحربية كان يمكن أن تهدر أسبوعاً وهي تحاول التزود بالوقود.

وعندما صار دولفين التزود بالوقود مهيأً في عدن في 1999. قام العنصر البحري في القيادة المركزية بمراجعة أمنية وقرر أن الميناء كان مناسباً للوقفات القصيرة للتزود بالوقود. لقد كان هناك ثلاث عشرة وقفة قصيرة للتزود بالوقود من مثل هذه الوقفات في العام 1999، وأربع عشرة وقفة في العام 2000 قبل الهجوم على كول. وجميع وقفات التزود بالوقود السابقة مرت من دون أي حادث، ولم يكن هناك أي معلومات استخباراتية تشير إلى أن التهديد الأمني قد ازداد ارتفاعاً في اليمن عندما دخلت كول ميناء عدن.

هذا القدر بالنسبة إلى الحقائق.

وعندما طرح الشيوخ أسئلتهم، صار واضحاً أن بعضاً منهم كان يمتلك تفسيره الخاص للأحداث. وقام قائد الأقلية في اللجنة، الديمقراطي النافذ من ميتشغان كارل ليفن، يطرق علينا باستمرار، ضاغطاً علينا لنعترف أن زيارة كول كانت جزءاً من سياسة تمت بدون مشورة حكيمة للارتباط مع اليمن، وتضمنت عقداً مربحاً للتزويد البحري بالوقود في ميناء كان ملاذاً معروفاً للإرهاب. أما وولت سلوكومب، وإدّ ووكر، وأنا فتمسكنا بالحقائق، بينما تحاور الجمهوريون والديمقراطيون على المنصة معنا وأحدهم مع الآخر. واشتمل الحوار على تقريرات رأي أكثر إلى حد بعيد من الأسئلة. وكان عضو مجلس الشيوخ ليفن مصمماً على أن أعترف أن نظامنا لتحديد شروط التهديد كان نظاماً معيباً. كول هوجمت، وهذا في حد ذاته يعني أن حالة التهديد برافو، ب، كانت قد وضعت خطأً.

وفي الرد وصفت عملية اتخاذ القرارات، وساندت حكم قائدي البحري اللواء

البحري ويللي مور. في السنة الماضية، نفذت القيادة المركزية 186 وقفة موانئ في ثمانية مرافئ مختلفة في جميع أنحاء المنطقة، وجميعها في حالة التهديد، برافو، ب. ولم يكن هناك معلومات استخبارية تفيد بأن مستوى الخطر كان أعلى في مرفأ عدن في يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر.

في أواخر الاستماع، عانيت لحظة من لحظات سي ان ان غالية جداً عند منتجي التلفاز. مقالة مثيرة على الصفحة الأولى في صحيفة واشنطون تايمز في ذلك الصباح وأُخِذت وكأنها حقيقة من عدد من أعضاء اللجنة. ففي "تقرير استخبارات أسرار عليا" متسرب روى بل غيرتز، أن وكالة الأمن القومي كانت قد حذرت "في اليوم الذي فجرت فيه المدمرة كول"، من أن الإرهابيين كانوا يخططون لهجوم في المنطقة. لماذا رست كول في عدن للتزود بالوقود؟ لاحظت مقالة غيرتز أن التحذير لم يستلم على ظهر كول إلا بعد أن كانت السفينة قد هوجمت. وصياغة كلمات المقالة أوحت ضمناً أن العسكريين جلسوا على معلومات استخباراتية حيوية، وهكذا حكموا بالقضاء على بحارة كول. والعنوان الرئيسي الفرعي من القصة: "النقل المتأخر مقصر"، كان يوحي ضمناً بوضوح أن مجتمع الاستخبارات والعسكريين قد أسقطوا الكرة، أخفقوا، فارتكبوا بذلك خطأً.

وطالب عضو مجلس الشيوخ جيف سيشنس، وهو جمهوري من ألباما، أن يعرف إن كنا نحن: "الناس الموجودين في السلطة الذين يجب أن نعرف هذه الإجابات" قد تملكنا " أي إحساس بالإحراج" حول هذا.

وعندما شرحت الحقيقة، وهي أن تحذير وكالة الأمن القومي لم يكن يتعلق بمنطقة القيادة المركزية، بدت اللجنة أقل اهتماماً بالشرح منها بشريط التلفاز الذي يبين الغضب المحق من العديد من الأعضاء. ولم أستطع أن أمتنع، وقد أدهشني المنظر، أن أتخيل حشد الصحفيين الذين سيقومون في الحال بتحرير وإرسال هذا الشريط التلفازي عائدين به إلى مواطن ناخبي أعضاء مجلس الشيوخ.

وعندما كنا نغادر مبنى مكتب مجلس الشيوخ للاستعداد لاستماع لجنة

الخدمات المسلحة في مجلس النواب بعد عصر ذلك اليوم، التفتُّ إلى وولت سلوكومب وسألته: "هل أبدو لامعاً؟"

"ليس بشكل خاص، لماذا؟"

"حسناً، ظننت أني قد أبدو، لأننا كنا قبل قليل نُصنفر بفرشاة سلك لمدة حوالي ثلاث ساعات."

في الوقت الذي كانت البلاد تعد فيه الأوراق الصغيرة المعلقة الخاصة بالانتخابات(*) وكانت المحاكم في فلوريدا وواشنطون تتداول الرأي، رجعت إلى منطقة المسؤولية، أحشد الأصدقاء والحلفاء المحتملين في جهودنا المستمرة لكبح الإرهاب، وتخفيف الأزمات الإنسانية، وتسهيل المشاركة بالمعلومات الاستخبارية. كان تحقيق كول قد اكتمل بعد بضعة شهور، من دون أن يترك أي أكباش فداء، بل ترك هَبَّة قوية من السياسات في أعقابه.

في 9 كانون الثاني/ يناير 2001، في الأيام المتناقصة لإدارة كلينتون، دعاني ديك كلارك من مجلس الأمن القومي لمناقشة ملاحقة الحكومة لأسامة بن لادن والقاعدة. وتحدث مدة من دون أن يقدم خيارات ذات مغزى. وكان قد أعطاني جورج تينت إيجازاً من قبل عن نشاطات الوكالة في أفغانستان وفي آسيا الوسطى، ولكنني أنصتّ لكلاك بصبر لأنه قال إن الإدارة القادمة سوف تستبقيه في منصب مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي.

وعندما تحدثنا في اس تي يو-111، شاركني كلارك معلومات حساسة تتصل ببرنامج بريديتر زائد. وأخبرني أن العملية كانت تتحرك قدماً بشكل جيد وقد تجني النتائج قريباً. وقال أيضاً إن أداء استخباراتنا البشرية كان يتحسن، ولكنه لم يعط تفاصيل.

وقلت: "عظيم، نحن في حالة تهيؤ للحصول على إحداثيات الهدف."

(*) يشير إلى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٠م في الولايات المتحدة، عندما تقاربت النتائج بين المرشحين آل غور وجورج بوش، وتم تعداد بعض الأوراق يدوياً، وفاز بالرئاسة جورج بوش بفارق صغير.

لم أستلم قطعياً توصية عملياتية واحدة، أو صفحة واحدة من معلومات استخباراتية قابلة للعمل بموجبها من ريتشارد كلارك.

كان المقر العام في راوالبندي بارداً وظليلاً، وهو قلعة حجرية قديمة للحكم البريطاني. استقبلني الرئيس برويز مشرف في مكتبه المغطى بالخشب في 19 كانون الثاني/يناير 2001، وكان يلبس ملابس مظليين طويلة وبنطالاً من النسيج القطني المضلع الكاكي المكوي كياً حاداً.

كان هذا تبادلاً للآراء من جندي إلى جندي، ومال مشرف بشكل طبيعي على مصطلح الاختصارات العسكرية ورطانتها. وأعلن أنه سيعطيني إيجازاً عن "الموقف الكبير" ثم ينقسم النقاش بعدئذ إلى التفاصيل. وأنصت كما لو كنت أنصت إلى ضابط جنرال اعتاد بشكل جيد على تلخيص المعلومات المعقدة، وهو، طبعاً، ما كان منصب مشرف، قبل أن يقود انقلاباً للجيش ضد الحكومة المدنية الباكستانية الفاسدة في العام 1999.

بعد قيادة وحدات في القتال في أثناء حربين مع الهند، كان مشرف قد علَّم في المدارس العسكرية الباكستانية العليا. كان إستراتيجياً حاذقاً، وتحول اجتماعنا إلى نوع من محاضرة واسعة المدى عن بلاده وعن وضعها العسكري.

أصر أن باكستان كانت تفضل السلام في المنطقة بحزم، وهي ضد الإرهاب، وضد التطرف في أي شكل، ومن جملته كما أكد لي التعصب الديني، "الهندوسي والإسلامي على حد سواء"

وقال وهو يشير إلى تنامي الترسانة النووية لباكستان: "نحن لم نكن نعتزم قط أن نبدأ سباق تسلح، والمقصود من أسلحتنا هو صيانة السلام بشرف وحفظ كرامتنا. إنها رادع، وليست قدرة لتوجيه الضربة الأولى."

وأضاف مشرف، وكأنه كان يتابع أفكاري، إن السبب الوحيد الذي استثمرت باكستان من أجله الثروة والطاقة الكبيرة في تطوير الصواريخ البالستية هو أن سلاحها الجوي كان عاجزاً بسبب الحظر الأمريكي على السلاح.

وأومأت برأسي مشيراً إلى فهمي.

ثم ركز بعد ذلك على أفغانستان، وقال: "ليس لدينا خيار إلا أن نعمل مع طالبان. وأستطيع أن أؤكد لك أننا نكره تطرفهم، ولكنهم جلبوا الاستقرار لأفغانستان وأنهوا سفك الدماء بعد مغادرة السوفيت. يجب أن يكون لنا استقرار على حدود واحدة على الأقل."

كان هناك خريطة كبيرة، جميلة محفورة حفراً لشبه القارة على الجدار. وعندما كان يتكلم، كنت أدرس الطبوغرافيا. فالجنود يفضلون أن يدافعوا من أرض عالية، ولكن الكثير من باكستان كان موقعه في سهول وادي الأندوس المجدب. وفي حالة وقوع غزو هندي، ستقوم القوات العسكرية الباكستانية بأخذ مواقعها لحماية إسلام أباد. وسوف يحتاجون بالفعل إلى خطوط اتصال بأفغانستان. كان ذلك هو "العمق الاستراتيجي" الذي ناقشته أنا وجورج تينت.

وقلت: "أنا أفهم موقفكم."

وقال مشرف: "أنت تعرف، يا جنرال، أن حركة الطالبان معزولة. ونحن لنا بعض النفوذ عندهم، ولكننا لا نسيطر عليهم. وسوف أعمل أقصى ما في وسعي لتقديم المساعدة. ولكننا نحتاج إلى المساعدة من المجتمع الدولي."

والمساعدة التي كانت في ذهنه، طبعاً، هي المعونة الاقتصادية والعسكرية من الولايات المتحدة. ولم أكن هنا لأمنح تنازلات. ولكني سأحمل هذه الرسالة إلى واشنطون.

وقال وهو يقرر القضية مباشرة: "باكستان تود أن تساعد في مشكلة أسامة بن لادن والقاعدة. فإذا كنا نستطيع أن نزيد تأثيرنا مع طالبان، فإن من الممكن أن يوافقوا على طرده إلى دولة محايدة إما إلى المنفى أو ليقدم إلى المحاكمة."

وقلت: "أنا هنا لأنصت، يا جنرال مشرف."

وتابع مشرف إيجازه، ولكن المعلومات الحيوية قد تم تبادلها. إذا ساعدناه في حاجات باكستان فسوف يساعدنا مع الطالبان والقاعدة.

وعندما كنا نتكلم، طرأ لفكري أنه كان مناسباً أننا كلينا كنا نلبس البزة العسكرية. فطوال سنوات، كان المبعوثون الرسميون والدبلوماسيون الأمريكيون ببدلاتهم بهيئة رجال الأعمال قد أفزعوا العسكريين- السياسيين من أمثال برويز مشرف بحقوق الإنسان والحكومة التمثيلية. ومن الطبيعي، أنني كنت أؤمن بهذه القضايا بالقناعة نفسها، ولكننا في هذه النقطة في التاريخ كنا نحتاج إلى تأسيس الأولويات. وقْفُ القاعدة كان أولوية عالية، وكان مشرف راغباً في المساعدة.

مشى معي الرئيس إلى الخارج إلى سيارة السفارة، ووقفنا في ظل أشجار الأوكالبتوس العالية.

وقال مشرف: "يجب أن تعود سريعاً كي نلعب الغولف."

"سيكون هذا من دواعي السعادة، يا سيدي."

سيكون برويز مشرف صديقاً وحليفاً على حد سواء في الأيام التي تنتظرنا في المستقبل.

مع القادة العامين الآخرين في القيادات الموحدة، قابلت وزير الدفاع الجديد دونالد رامسفيلد، في 7 شباط/فبراير 2001. كان يلبس بدلة سوداء جميلة التفصيل، وقميصاً أُثبت طرفا قبته بأزرار، وربطة عنق القوة باللون الأحمر، وكان الوزير ودوداً وهو يرينا غرفة مكتبه في الحلقة ئى.

وقال، وهو يدرسنا من خلال نظارته التي كانت دون إطار: "إنها عارية هنا قليلاً، أيها السادة. مازلنا نقوم بإخراج الأمتعة."

كان هناك برونز ريمنغتون أصيل، والعديد من الصناديق مسندة على أحد الجدران. ورآني الوزير وأنا أنظر إلى طاولة قراءة عالية من الخشب القاسي. لقد سبق أن رأيت هذه الطاولات الواقفة، وتذكرت أن جون كيندي كان قد استخدم واحدة.

وقال: "لقد وجدت دائماً أنكم تفكرون على نحو أفضل وأنتم على أقدامكم.

وأنا أحاول أن أمشي أكثر ما أستطيع في كل يوم." ثم تبسم. "وأخمن أنني جئت إلى المبنى الصحيح لذلك الغرض."

وأنصتنا باهتمام. وقد كان رامسفيلد معروفاً بوصفه مفكراً غير تقليدي ومجدداً. وكان تعبير "خارج الصندوق" هو الذي استخدمه عديدون لوصف عقله، في المديح وفي الذم على حد سواء. وحتى الآن كان اجتماع المصافحة معه وفق ذلك النمط: الوزير لم يُعِد أي جدول عمل للمناقشة.

ومثل زملائي، كنت مجتهداً، وبقيت ساهراً حتى وقت متأخر للإعداد للموضوعات المهمة مقدماً قبل هذا الاجتماع الأول. كنت مستعداً لمناقشة مناطق حظر الطيران في العراق، والتهديد الإرهابي في المنطقة، ومركز القيادة الجديد القابل للانتشار الذي كنت أبنيه للقيادة المركزية.

ولكن دونالد رامسفيلد كان نافراً على ما يبدو من الحديث عن العمل في هذه المقابلة الأولى. ومع ذلك، فقد كان رامسفيلد فعلاً يسيطر على المحادثة. وعلى رغم أسلوبه الناعم في الكلام، فإنه ينم عن السلطة. وقد غادرت الاجتماع أحمل الانطباع بأنني قد أمضيت منذ قليل وقتاً مع شخص كان أكثر اهتماماً في أن يعلم عنّا، نحن قادة أمريكا العسكريين في البزة، من اهتمامه بأن نعلم نحن أي شيء عنه. وفكرت وأنا أجلس في الحافلة مع الآخرين من القادة العامين ورؤساء الخدمات في الطريق إلى البيت الأبيض: إن رامسفيلد يعرف ما يريد. والبقية منا سيعرفون ذلك بسرعة كافية.

توجهنا لنقابل الرئيس جورج دبليو. بوش وبقية فريق الأمن القومي. وعندما دخلنا إلى غرفة الوزارة، كنت واعياً بالتاريخ الذي تكشَّف هنا: ففي داخل هذه الجدران المكسوة بالخشب كان أبراهام لينكولن، وتيدي روزفلت، وودرو ويلسون، وفرانكلين ديلانو روزفلت، وجون فيتزجرالد كيندي قد اتخذوا قرارات حول سلام العالم والنزاع في هذا الكوكب. وكنت مذهولاً بالصداقة التي أبداها الموظفون. لم يسبق أن دعيت إلى البيت الأبيض في عهد كلينتون أبداً، ولكن الزملاء قد وصفوا

فيه برود ملموساً نحو الضباط العسكريين. إذا كانت تقاريرهم دقيقة، فهذا البيت الأبيض سيكون بيتاً مختلفاً جداً.

بدا لي الرئيس جورج دبليو. بوش أفتى مما كنت قد توقعت. كان هناك وثبة في خطوته عندما جاء إلينا عند الطاولة وصافح كلاً منا يداً بيد.

وقال وهو يبتسم: "يجب أن نأخذ صورة لهذا، يا جنرال. كم مرة استطاع ولدان من ميدلاند، تكساس أن يصلا إلى هذا المدى؟"

وقلت: "سيدي الرئيس، كانت هناك أيام ظننت فيها أنني لن أصل أبداً إلى رتبة ملازم ثان."

وعندما جلسنا، التحق بنا نائب الرئيس تشيني، ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، وأندرو كارد، رئيس موظفي الرئيس. وبعد أن تحدث رامسفيلد ببعض الملاحظات التمهيدية، تابع كل قائد وصف مسؤولياته.

وعندما قدمت إيجازي لمدة عشر دقائق عن القيادة المركزية ومنطقة المسؤولية، كانت غرفة الوزارة صامتة صمتاً مطلقاً. وكان الرئيس مركزاً، ينصت باهتمام، وسأل عن مستويات الجند وشخصيات القيادة في المنطقة.

لاحقاً في ذلك المساء، التحقت بنا زوجاتنا لاستقبال وعشاء في الغرفة الزرقاء في البيت الأبيض. وعندما كنت أتحدث أنا وكاثي مع أصدقاء قدامى وتحدثنا مع كوندي رايس ومع نائب الرئيس ديك تشيني، مشى نحونا الرئيس بوش وقال: "أربع نجوم. واو! ابن ميدلاند عمل بشكل جيد." وتبسمت، ونظرت حول الغرفة وقلت: "سيدي الرئيس، ابنان اثنان من ميدلاند على ما يبدو عملا بشكل جيد."

وعندما كنا على وشك أن نجلس للعشاء، ضرب الرئيس بوش كأساً ضربة خفيفة وقال: "انحنوا معي، من فضلكم." وعندما قال صلاة الشكر لله قبل الأكل، تأثرت بالفصاحة وببساطة الصلاة على حد سواء. وتذكرت عهد الولاء: أمة واحدة،

تحت رعاية الله. لقد كانت هناك راحة معينة في سماع رئيس الولايات المتحدة يصلي: "للأب المقدس." لقد سررت في تلك الليلة لوجود رجل صاحب إيمان في البيت الأبيض.

وطوال السنوات الحرجة من تاريخ أمريكا التي تلت ذلك، لم يتغير رأيي أبداً.

في 7 آذار/مارس 2001، أتيحت لي أول مناقشة مطولة مع دونالد رامسفيلد في غرفة المؤتمرات في مكتبه في وزارة الدفاع. ونجح وزير الدفاع في البقاء جالساً لعدة ساعات، على الرغم من أنه تمشى إلى بار القهوة في مرات قليلة ليعاود ملء فنجانه بقهوة بدون كافئين. وحضر الجلسة أيضاً نائب وزير الدفاع بول دي. وولفوويتز والمساعد الخاص لرامسفيلد وهو الرجل الطويل، الصديق الحميم المثقف المهيب، ستيف كامبون.

وأخبرته: "إني سأذهب مرة أخرى إلى لجنة الخدمات المسلحة في المجلس غداً، سيدي الوزير. لقد أمضيت في العمل ثمانية شهور وستكون هذه جلسة الاستماع الثامنة."

أجفل رامسفيلد واستدار إلى كامبون: "ستيف، احتفظ بسجل للشهادات في مجلس الشيوخ التي يدعى كبار المدنيين والعسكريين في وزارة الدفاع ليعطوها." ثم استدار إلي ثانية وسألني: "كيف كانت رحلتك الأخيرة إلى المنطقة.؟"

في أثناء مساري الوظيفي عرفت عدداً من كبار المدنيين في وزارة الدفاع. والعديد منهم حاولوا أن يتفوقوا على العسكريين باستخدام المختصرات، ولكن هذا الرجل كان مختلفاً. أظن أني قد أكون سمعته يستخدم الحروف الأولى الدالة على منطقة المسؤولية مرتين، ولكنه كان يبدو دائماً أكثر راحة مع اللغة العادية للمدنيين. ولم يكن هذا يعني أنه لم يكن مركزاً على مسؤولياته العسكرية، بل على العكس تماماً: فسوف أعلم أنه كان ينظر إلى دوره على أنه دور محام للخدمات المسلحة، ومتحدٍ لها. دون رامسفيلد ليس مجرد "عضو منضم للمماثلين في التفكير" مثلما

سبق أن وصف العديد من الوزراء، بل هو غير ذلك، إنه قائد كان يريد أن يستخدم أفكاره الخاصة ليحدث التغيير.

في هذا الوقت المبكر من مدة توليه منصبه، كان قد سبق إلى البدء في مناقشة التحول، وتغيير القوات العسكرية "لمواجهة حاجات القرن الحادي والعشرين." وفكرت وهو يتحدث: هذا الرجل يعتزم أن يغير الأشياء. وكنت على يقين أن الأيام القادمة سوف تعطي علامة على بداية أي عدد من الدراسات التي ستجعل رؤساء الخدمات ينكمشون: كيف يقسمون كعكة الموارد؟ وكيف يتكيفون مع "نهاية القوى" لفروعهم؟ وكيف يجعلون القوات المسلحة لأمريكا أكثر "اشتراكاً"؟ واستمرت القائمة. هذا جيد له.

بعض وزراء الدفاع رأوا أنفسهم في موقع خمس نجوم منصّبين أعلى قليلاً فوق كوكبة من الضباط الذين يرفعون أعلامهم والذين يحملون أربع نجوم. رامسفيلد لم يكن مرتفعاً فوقنا إلى الحد الذي يكون فيه في مدار خاص به. الجنرالات والأدميرالات يتعلمون أن يفكروا في أنماط عمودية وأفقية. وأما عقل رامسفيلد فكان يعمل في نمط مائل، في مقطع عرضي لما هو تقليدي. لقد سمعت دمدمات من السخط من قلة من الزملاء، الذين اتهموه بكونه غريباً غير تقليدي للغاية "في القسم البعيد في الميدان الأيسر" عندما أتى الأمر إلى النواحي العملية للدفاع القومي. ربما كان الأمر كذلك، ولكن جلساتي المبكرة معه أقنعتني أنه سيكون جيداً للقوات العسكرية. الشعبية ليست أبداً على الدرجة نفسها من الأهمية مثل الاحترام.

في الرد على سؤال رامسفيلد، وصفت له أحدث اجتماعاتي في البحرين، وقطر، والإمارات العربية. وسأل الوزير عن رد الفعل الذي كنت واجهته في هذه البلدان على أحدث هجماتنا على العديد من الأهداف في العراق. وهذه الضربات تضمنت خيار رد قوي نوعا ما، أُطلق في أعقاب سلسلة من إطلاقات صواريخ اس ايه-2 على طائراتنا. وشرحت له بعناية إجراءات خيار الرد (متجنباً استخدام

الحروف المختصرة) وقلت إن حلفاءنا العرب كانوا متناقضين بشأن النتائج، ولكنهم على وجه العموم قدروا حقيقة أننا نستخدم القوة عندما نرى أن استخدامها كان ضرورياً.

وسأل رامسفيلد: "كيف السعوديون؟"

وشرحت له مشكلة: "الموت بألف جرح" التي كنا نواجهها، وحقيقة أن البعثة العسكرية البريطانية في المملكة العربية السعودية هي أيضاً تواجه المتاعب.

وقلت: "إن السعوديين يتصعّبون. فَهُم من جهة، يريدون علاقة حميمة معنا، ومن جهة أخرى لا تريد العائلة المالكة أن تخلق لنفسها مشكلات مع رعاياها، الذين يودون رؤيتنا راحلين."

ثم خصصت عشر دقائق لوصف دقيق لرد الفعل التصعيدي العراقي على دورياتنا الجوية في كل من عملية مراقبة الجنوب، وعملية مراقبة الشمال، وأخبرت الوزير بأننا سنحتاج إلى تعديل تناولنا للموقف، إما بعدد الدوريات، أو المسارات الجوية التي يطيرون فيها، من أجل تخفيض الخطر لملاحينا الجويين.

بقي رامسفيلد هادئاً للحظة، ثم نظر مباشرة إلي بنظرته الزرقاء المحايدة. وقال: "يبدو لي، يا جنرال، أننا نقوم بعمل ثقوب فقط في السماء." عمل لا طائل تحته ثم تابع: "نحن نحتاج إلى غايات مادية ملموسة. والسياسة الحالية مفتوحة النهاية. أنا أريد أن أوصي بغايات، وبأهداف، وبمداخل يكون لها معنى. فكر خارج الصندوق. ولا يهمني كيف عملناها دائما. إن الاحتواء لم يغير سلوك النظام. ما زلنا نرى صدام يطلق النار على ملاحينا الجويين. لديك الكثير من العمل لتعمله، أيها الجنرال."

تبسم رامسفيلد، وكنت على وشك الرد عندما تابع وغيّر الموضوع الذي كان التركيز عليه وهو يتكلم، وقال بشكل مباشر: "العقوبات المفروضة ضد العراق تنهار. والعرب يقدمون وعوداً غامضة لتقديم المساعدة، ولكنهم لا يسلمون شيئاً. وتحالف

حرب الخليج انخفض إلى وجود البريطانيين ونحن. وذلك لا يمكن أن يدوم إلى الأبد."

كان يتحدث منفتحاً، ولذلك قررت أن أتحدث بانفتاح. وقلت: "الموقف الإسرائيلي- الفلسطيني يؤثر على كل شيء هناك، يا سيدي. الانتفاضة تغطي كل وسائل الإعلام في المنطقة في كل يوم. وإلى أن نحل تلك المسألة، فإن العرب لن يخاطروا بمساعدتنا على حل مشكلة صدام."

واستمرت المناقشة لمدة ساعتين أخريين، تجول فيها الحوار بحرية وعلى نحو لم يكن يمكن التكهن به.

عندما عدت إلى غرفتي في الفندق عبر الشارع من وزارة الدفاع، حاولت أن أنسخ صفحات الملاحظات التي دونتها. كان الاجتماع مرهقاً، ولكنه كان مبهجاً. لم أكن قد قمت بمثل هذا التمرين العقلي منذ تلك الجلسات الطويلة حول طاولة الاجتماعات لقوة المهام لمناورات لويزيانا في فورت مونرو. وكنت أستطيع أن أفهم لماذا كره بعض الجنرالات الوزير دونالد رامسفيلد ولم يثقوا به، فأنت لم تكن تريد أن تدخل إلى مكتبه مع كدس أنيق من لوحات الإيجاز التي تتبع تسلسلاً منطقياً من أ إلى ب، لأن رامسفيلد سيعيد توجيه الإيجاز بعد أول لوحة. فهو لم يكن يفكر خارج الصندوق وحسب بل لم يكن يعترف بأن الصندوق موجود أصلاً.

وجهني الوزير أن أفكر بسنوات في عمق المستقبل، ولكنني مازلت أتولى مسؤولياتي اليومية، والأسبوعية، والشهرية لإدارة قيادة كبيرة ونشيطة. وسافرت إلى منطقة المسؤولية. ووخزت عمليات ردنا في مناطق حظر الطيران في العراق. وأمضيت ساعات مع مدير العمليات الجديد عندي، اللواء في القوات الجوية جين رينيوات، ومدير الاستخبارات الجديد عندي، العميد في الجيش جيف كيمونز، لبناء "مجموعات" أهداف، أي، أنواع المنشآت، في التسهيلات المشكوك فيها للقاعدة ولطالبان في أفغانستان.

وكنت أظن أن سياستنا نحو القاعدة كانت ستتغير في وقت قريب. لم يكن هناك شيء حاسم في الإشارات التي تلقيتها، ولكني أحسست بخيبة الأمل في وزارة الدفاع وفي مجتمع الاستخبارات نحو الردود الثأرية التي تشبه وخز الدبابيس والوقوف بعيداً والتي استخدمناها في الماضي. إن الإدارة الجديدة سوف تستقر على مدخل قوي للمعالجة، وهذا ما كنت متأكداً منه. وسوف تستغرق وقتاً لنقوم بعمل الاصطفاف اللازم لمواقع السياسة المطلوبة، والمبادرات السياسية، والقدرة العسكرية، ولكن ذلك قادم.

في نيسان/إبريل تلقيت زيارة في ماكديل من إيريك أنتيلا، الذي كان قد تقاعد منذ وقت طويل من الجيش برتبة عقيد. بدا لي مسناً ومتعباً، وربما كان مريضاً. أمضينا ساعتين "ندخن وننكت" على كراسي بمسندين في مكتبي، ونتحدث عن الأيام والليالي التي أمضيناها في فيتنام وعما كنا قد تعلمناه.

قال: "أنا كنت محظوظاً، يا توم. كان معي جنود جيدون شجعان شبان، راغبون في أن يقادوا، ولا يستطيع الضابط أن يطلب أي شيء أكثر من ذلك."

وفكرت، كم هو على حق. "ونحن كنا محظوظين أيضاً بك، يا سيدي."

وفي طريقه في الخروج، أخذت هذا الجندي القديم الرائع عبر غرفة الغنائم. كان مهتماً بالأسلحة، ومهتماً بالحديث مع كل عسكري مر عليه. "أنا فخور بك، يا جنرال، كنت أفضل ملازم عرفته في الماضي. كنت تهتم بالجند، وقد تذكرت ذلك دائماً."

ونظرت إلى الأرض وقد اغرورقت عيناي بالدموع. "أيها العقيد، وأنت اعتنيت بهذا الملازم. ولذلك أنا اليوم هنا."

وابتسم إيريك أنتيلا بحكمة وهو يمشي مبتعداً. لم أره ثانية أبداً، لقد مات بعد شهور قليلة لاحقة. ولكن ذكراه، وقيمة الولاء للمرؤوسين التي تذكّر به، سوف تبقى في أثناء واحدة من أكثر الأوقات قسوة في حياتي.

طوال ربيع 2001 وحتى الصيف، بقيت حماية قواتنا المنتشرة من الإرهابيين هي الاهتمام الحاضر دائماً. وأمضيت أياماً طويلة وعطلات نهاية الأسبوع مع قادة عناصرنا الجوية، والأرضية، والبحرية، نعمل على التأكد من أنه لن يكون هناك تكرار لأبراج الخبر وكول.

وصل الصيف وجماعتنا في الاستخبارات يعملون مع وكالة الاستخبارات المركزية ومع وكالة استخبارات الدفاع، وهم يجمعون ويحللون إشارات متواصلة ولكنها غير محددة عن نشاط إرهابي مخطط في الشرق الأوسط. وكانت معلومات "كل المصادر"، خليط من الاستخبارات البشرية والفنية. وأمرت قادة العناصر أن يجعلوا جماعتهم يبدون أقل ظهوراً. وفي عدة مناسبات، زدت وضع حماية قواتنا، ومستوى التهديد، ولكنه لم يكن أبداً نتيجة لتهديد محدد. شيء ما كان يجري تدبيره، ولكن أفضل العقول في وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي لم تستطع أن تحدد التهديدات بأي درجة من اليقين. أين سنرى عملاً إرهابياً؟... ومتى؟

وفي أثناء قراءتي للتقارير التي يتزايد القلق منها عن هجمات محتملة على المنشآت الغربية في المنطقة، تشكلت لدي فكرة. لقد استخدمت القاعدة السيارات، والشاحنات، والزوارق لتكون قنابل انتحارية. ماذا عن طائرات صغيرة محملة بمتفجرات شديدة الانفجار؟ أرسلت ملاحظة، في البداية، إلى سفارتنا في الرياض، ثم إلى السفارات الأخرى في منطقة المسؤولية، وطلبت فيها من السفراء أن يبلغوا قلقي إلى مضيفهم. وقلت: "يجب علينا أن نعمل على تكييف الأمم المضيفة في المنطقة لهذا النوع من التهديد."

في الأسبوع الأول من سبتمبر عملت مع جورج تينت، ومع مساعدة وزير الخارجية، كريستينا روكا، لنرتب اجتماعاً مع الجنرال محمود أحمد، رئيس مديرية الاستخبارات المشتركة بين الخدمات العسكرية الباكستانية، في أثناء زيارة مخطط لها إلى واشنطون. كنت راغباً في النظر بعمق أكبر إلى العلاقات بين باكستان

والطالبان، وأن أقوّم إمكانية أن تقوم باكستان بمساعدتنا في الوصول إلى أسامة بن لادن والقاعدة عن طريق زيادة التعاون مع وكالاتنا. وتقرر أن يكون الاجتماع في 10 أيلول/ سبتمبر 2001.

في يوم الجمعة 7 أيلول/ سبتمبر تحدثت إلى أركان الاستخبارات في القيادة المركزية في مسرح قاعدة ماكديل حول أدوار ومسؤوليات القيادة كما تصورتها.

وعند نهاية العرض، رفع رقيب شاب يده وسأل: "أيها الجنرال، ما الذي يبقيك يقظان في الليل؟"

سؤال شديد. فكرت دقيقة وأجبت: "هجوم إرهابي ضد مركز التجارة العالمي في نيويورك، هذا هو ما يبقيني يقظان في الليل."

وكان الرجال والنساء في الجمهور ينصتون باهتمام.

وأضفت: إذا كان للإرهابيين الدوليين أن يضربوا ضربة كبيرة ضد أمريكا فإني أخشى شبح القوات العسكرية للأمة وهي تعمل بصفة مقاتلين داخل حدودنا لأول مرة منذ الستينيات من 1860.

تحدثت عن أعمال الشطط في إعادة البناء بعد الحرب الأهلية، وهو ما أدى بالنتيجة إلى سن قانون قوة البلاد، وهو القانون الذي يمنع القوات العسكرية من الخدمة بدور شرطة داخل الولايات المتحدة. هل سيبقى هذا التحديد بعد هجوم إرهابي متطور بشكل كامل؟

وأكدت: "وهكذا، فالشيء الذي يبقيني يقظان في الليل، أيها الرقيب، هو إمكانية استخدام قواتنا المسلحة ضد المواطنين الأمريكيين. نحن نقوم بواجبنا بشكل جيد، ولكننا مدربون كي نقاتل أعداء أجانب. نحن لسنا ضباط شرطة ولا شريف شرطة أو مكتب التحقيقات الفيدرالي. وإذا طُلبنا لنتصرف في تلك الصلاحية في أثناء حالة طارئة كبيرة مثل هجوم على مركز التجارة العالمي، فإن الأثر الذي يقع على أمريكا يمكن أن يكون مدمراً. والقانون العسكري لن يجلس بشكل جيد في مجتمع حر مفتوح."

الفصل السابع

نوع جديد من الحرب

خليج سودا - كريت

11 أيلول/سبتمبر، 2001

كان الطريق الضيق الممتد من القاعدة الجوية إلى هانيا يتحلق حول خليج سودا، وينزل عبر غابات الزيتون ومدرجات المصاطب المزروعة بكروم العنب. ودخلنا قرية بيوتها مطلية بطلاء جيري أبيض وسقوفها من القرميد البرتقالي.

ومددت رجلي في مقعدي. وإلى جانبي في سيارة البحرية من نوع سيدان، كانت كاثي تنعس، تأخر النفاثة كان خطراً مهنياً. سنكون غداً في باكستان، ولكن بالنسبة إلى الوقت الحالي فأنا أتطلع بأمل إلى الاستمتاع باستراحة التوقف هذه في شمس بحر إيجة، داعياً ملاحي الرحلة إلى عشاء من طعام البحر، وتخزين بعض النوم.

لقد استخدمت معظم ساعات الطيران العشر من قاعدة القوات الجوية في أندروز في واشنطون إلى اليونان لأحُرِّثَ في الأوراق التي جمعها ضابطي التنفيذي النقيب البحري فان موني منذ مغادرة تامبا في اليوم السابق.

كان هناك تقرير استخباراتي واحد مزعج. الجنرال أحمد شاه مسعود قائد تحالف معارضة الشمال الأفغاني ضد طالبان قد مات، جرح جروحاً قاتلة في مقره بالقرب من الحدود مع أوزبكستان عندما تظاهر مغتالان عربيان أنهما صحفيان وفجرا قنبلة انتحارية مخبأة في آلة تصوير الفيديو التي حملاها. وهذه حملت توقيع عملية من القاعدة. لم أكن متفاجئاً. فإن لدى أسامة بن لادن وقائد الطالبان الملا عمر الكثير ليكسباه عن طريق إضعاف تحالف الشمال.

أنا تمنيت فقط لو أن أخبار الاغتيال كانت قد وصلتني في واشنطون قبل

اجتماعي في 10 أيلول/سبتمبر مع الجنرال محمود أحمد من مديرية الاستخبارات المشتركة بين الخدمات العسكرية الباكستانية. لقد كانت محادثتنا هي محادثة ضابط محترف مع آخر، مناقشة "صريحة ومفتوحة"، مثلما يقول الدبلوماسيون. وبكلمات أخرى، مؤدبة ولكنها شديدة. باكستان كانت تحتاج إلى قطع غيار لطائراتها القاذفة المقاتلة اف-16 الأمريكية الصنع، وطائرات نقل سي-130، وطائرات الاستطلاع البحرية بي-3. ونحن كنا بحاجة إلى معلومات استخبارية صلبة عن القاعدة وأسامة بن لادن، معلومات نستطيع أن نستخدمها لنبني عليها أهدافاً. ومع مباركة الوزير رامسفيلد، وتشجيع جورج تينت مدير وكالة الاستخبارات المركزية، أخبرت الجنرال محمود أن التعاون كان شارعاً باتجاهين. وقد فهم الرسالة ووعد أن يقدم إيجازاً للرئيس مشرف عن مضمون الاجتماع.

الآن، وقد هبطنا في كريت، قمت أنا وكاثي بفتح حقائب الليلة في جناحنا، في فندق كايدون، المطل على ميناء من موانئ البندقية من القرون الوسطى، ثم توجهنا إلى السوق لنشتري "اللوازم" كما يقولون في ميدلاند، من أجل وجبة خفيفة بعد العصر.

كان باعة السمك يتغنون بصيدهم من الأسماك تحت قبة من الإسمنت المسلح ترجع صدى أصواتهم ونحن نسير نحو محل صديقنا سبيروس مارسيلوس الذي ابتسم ابتسامة عريضة عندما عرفنا.

وصاح: "كالوستي" "أهلاً بعودتكم إلى كريت".

كان سبيروس يعرف لماذا جئنا: من أجل أفضل مجموعة من الزيتون في اليونان. اغترف من براميل بلاستيك كبيرة وعرض علينا نماذج من زيتون مدينة كالاماتا اللامع الأسود القرمزي، وتنويعة من زيتون أخضر أكبر من مدينة فولوس. وغادرنا محله ومعنا كيس بلاستيك ثقيل بعلب سعة ربع ليتر. وبعد ذلك اشترينا جبنة ألمانية أمينثالر ورغيف خبز أسمر محلي محمّص فلاحي من نوع مافرو. وما لم نأكله للغداء سوف نتقاسمه مع الملاحين في رحلة طيران في اليوم التالي.

أخذت حماماً، وتشاركت بنزهة مع كاثي، وتمددت لأخذ إغفاءة. ولم يكن صعباً أن أغط في النوم.

الطرق المتواصل على باب غرفة الفندق أيقظني تماماً في أقل من ثانية، قمت، ودققت غريزياً في ساعة يدي بعد 4.00 تماماً بعد الظهر. شيء ما حدث خطأ، لم تكن يقظتنا مخططة إلا بعد الساعة الخامسة.

"جنرال فرانكس..." كان فان موني.

وفتحت الباب.

وقال ووجهه ممتقع: "سيدي، الأفضل أن تدقق في التلفاز. قامت طائرة قبل قليل بالاصطدام بواحد من برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك."

ولبست ملابسي بينما وجدت كاثي مفاتيح التلفاز وأدارته. وقلت وأنا أعبر الباب: "أسامة بن لادن، أنا ذاهب إلى غرفة الاتصالات."

مركز اتصالاتنا في القاعة يمتلك عدة خطوط هاتفية مدنية وجهاز تلفاز كبير موضوع على محطة سي ان ان الدولية. كانت الغرفة مليئة بأركاني. وشاهدنا بصمت والقناة تبث إعادة لأشرطة الفيديو لناطحة السحاب المحترقة. وكان التعليق فوضوياً، كما هو مفهوم، وفي الغالب متناقضاً، وكان من العسير تمييز الصور الحية عن الشريط. ولكن الشاشة الواسعة بعد ذلك التقطت صورة بعدسة مقربة لنفاثة ثانية تضرب في البرج الجنوبي.

عندما كنت أشاهد اللهب والدخان الأسود المتصاعد، ظهرت كتابة ملونة عند أسفل الشاشة تقول: "أمريكا تحت الهجوم."

وقلت: "أسامة بن لادن." ابن الك...!

واجتمعت قبضتي بشدة، ولكن عادات الجندي المقاتل عادت. كنت ممتلئاً بغضب بارد، ولكني خارجياً كنت هادئاً. الآن فهمت السبب لاغتيال مسعود. بعد أن توقع بن لادن الثأر الأمريكي في أفغانستان اتخذ عملاً استباقياً شل تحالف الشمال.

وببطء، قبلت الحقيقة الواقعة الجديدة: هذا الإرهابي الذي قتل من قبل مئات من الدبلوماسيين، وأعضاء من الخدمة العسكرية، والمدنيين الأجانب الأبرياء، قد نفذ الآن أنجح هجوم له ضد بلادي، على التراب الأمريكي مباشرة. ولمعت في ذهني رؤية غير متوقعة: بن لادن ليس جباناً. إنه خصم قاتل، وهو قائد له قيمته، وقائد جسور لقوات متفانية وقادرة.

ورن خط الهاتف في مقر القيادة المركزية في تامبا. كان رايفل دولونغ. وكنا نستطيع أن نتحادث عبر هذا الخط غير المأمون بينما يقوم جماعة الاتصالات عندي بخلط المكالمة لإقامة اتصال مرمّز. وقال مايك: "سيدي الجنرال، تقرير الموقف. تقول تقارير واشنطون أن الطائرتين قد خطفتا، وواحدة من مطار لوغان في بوسطن."

وقلت: "أفهم ذلك، يا رايفل. فعّل عندنا فريق عمل الأزمة إذا لم تكن قد فعلت من قبل. أقم اتصالاً مع الأركان المشتركة لفريق عمل الأزمة في وزارة الدفاع. اتصل مع سفاراتنا وكبار الضباط والعسكريين الأمريكيين في كل بلدان منطقة المسؤولية..."

بعد سنواتي قائداً، وأربع عشرة شهراً قائداً عاماً، كانت هذه الأوامر الأولية تلقائية تقريباً. ولكنني كنت أقاتل مركباً من العواطف والأفكار المتخطة. إن عدواً منظماً تنظيماً عالياً قد وجه هجوماً قاسياً على أمريكا. كانت نيويورك قلب أمتنا الثقافي، والاقتصادي، والمالي. وقسم من المدينة يحترق.

وفي هذا الوقت الآن كان الرئيس جورج بوش على الشاشة يتحدث من مدرسة فلوريدا، وكان هناك يعرض سياسته التعليمية. وقال إن الأمة قد عانت "هجوماً إرهابياً واضحاً."

وعندما كنت أتحدث مع رايفل، بثت سي إن إن انهيار البرج الجنوبي من مركز التجارة العالمي. أحسست كالمنوم من منظر الدخان المتصاعد كشكل الفطر، والركام، والغبار. وقلت بهدوء : "كل أولئك الناس."

وأعلن رايفل، الضابط البحري المتماسك: "بند آخر، سيدي. لقد وصلتنا قبل قليل كلمة تفيد أن طائرة بريديتر تطير في منطقة عملية مراقبة الجنوب قد أسقطت من طرف العراقيين."

"استلمت." وأقررت بالاستلام، وأسقطتُ تلك الحقيقة في الشق الذهني المناسب وقلت: "أعدوا خيار الرد الحركي." مهما يكن ما يجري في نيويورك، فيجب على صدام حسين وعسكرييه أن يفهموا أنه لن يسمح لهم باغتنام الفرصة واستغلال الموقف.

ثم تسلمت بعد ذلك رسالة من اللواء ساي جونسون، الذي كان يقود بعثتنا للاتصال العسكري في المملكة العربية السعودية، وتقول إن الفريق علي بن محيا رئيس الأركان العامة في المملكة العربية السعودية قد ألغى زيارة كنت قد خططت لها لأزوره في الأسبوع القادم في أثناء رحلة عودتي من باكستان. وهذه ملاحظة عقلية أخرى: أسامة بن لادن كان سعودياً. وموقف العائلة المالكة نحو الإرهابيين الذين نشؤوا في وطنهم كان قد تردد طوال سنوات بين التسامح والاستئصال. وكانوا، الآن، خائفين بشأن الارتباط علناً مع العسكريين الأمريكيين.

كلمت مايك دولونغ مرة ثانية بأمر جديد.: "يا رايفل، اتصل بقيادة العمليات الخاصة الأمريكية والجناح السادس للحركة الجوية في ماكديل فوراً. واجعلهم ينتقلون إلى حماية القوات بمستوى دلتا، د." إذا كانت هناك خلايا إرهابية متعددة تعمل في هذا الثلاثاء، فإن مقر القيادة المركزية وقاعدة القوات الجوية في ماكديل ستكون أهدافاً واضحة، وأنا أريد شعبنا ومنشآتنا محمية.

بعد دقائق قليلة، هاتفني رايفل مرة ثانية: "طائرة ثالثة، سيدي، لقد اصطدمت الآن بوزارة الدفاع. هيكل كبير مملوء بالوقود، مثل الطائرتين الأخريين. وهي على الجانب الغربي، وهناك الكثير من الأضرار."

وفكرت. كم العدد فوق ذلك؟

بينما رايفل يتحدث، عرضت سي إن إن الواجهة الرمادية المألوفة لوزارة الدفاع وهي تغلي بدخان أسود ولهب برتقالي.

وأعلن رايفل: "مركز القيادة العسكرية القومية في وزارة الدفاع ما يزال مأهولاً. ولكن الاتصالات صعبة."

"تسلمت." وبعد الإفادة بالاستلام،كانت أفكاري تقفز إلى الأمام. كنت أعرف هذا سلفاً: أمريكا سوف ترد رداً عسكرياً. وسيكون ذلك الرد موجهاً إلى القاعدة. وسوف يشن في أفغانستان. قائد القيادة المركزية والضباط الكبار لن يكون لديهم وقت ليحزنوا. فهذا لم يكن مجرد انتهاك إرهابي آخر: هذه الهجمات كانت فعلاً حربياً واضحاً. وأول معارك من تلك الحرب سيكون القتال فيها في منطقة مسؤوليتي.

رايفل، اعرف بأسرع ما يمكن حالة قاذفات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. كم صاروخاً سيكون متوافراً للإطلاق إلى أفغانستان في أربع وعشرين ساعة؟ وكم سيكون جاهزاً في ثمان وأربعين ساعة؟

وقال مايك: "نعم، دائماً، سيدي. وبالمناسبة، فإن إدارة الطيران المدني قد أغلقت كل الفضاء الجوي الأمريكي، وأرّضت كل الطيران. وأمر الوزير رامسفيلد بمستوى التهديد أن يكون دلتا، د، لجميع القوات العسكرية المنتشرة."

أفدت باستلام المعلومات. لا يؤمر بمستوى دلتا، د، إلا عندما يكون الهجوم وشيكاً فقط، أو أنه حدث من قبل.

واستمرت تغطية التلفاز في كابوس من دون انقطاع. وانهار قطاع من سقف وزارة الدفاع. وبعد لحظات جاءت لقطات صور بالعدسة المقربة ومهزوزة لدخان يتصاعد من مرعى أخضر جنوب شرق بيتسبيرغ، حيث اصطدمت بالأرض طائرة مخطوفة رابعة، هي رحلة 93 للخطوط الجوية المتحدة. وقتل كل الذين كانوا على متنها.

لم أبق قادراً على العمل من هذا الهاتف. كنت بحاجة إلى وصلات صوت وبيانات مأمونة عبر الأقمار. وقال العاملون في اتصالاتي إن الأمر يستغرق ساعة تقريباً لتوصيل كبلات الألياف البصرية من سطح الفندق، حيث كانوا قد نصبوا هوائيات القمر، والنزول بها إلى خارج المبنى إلى غرفة الاتصالات.

وقلت: "ابن الك... سأعمل على السطح."

وجلست منحنياً على كرسي بلاستيك على سطح الإسمنت المسلح المغطى بالحصباء لفندق كايدون أتحدث عبر وصلة قمر مرمّز إلى أركان القيادة المشتركة في فلوريدا. ومع الإشارة إلى ملاحظات، وجهتُ جين رينيوارت أن يبدأ بتصويب الضرب لأفغانستان. وكنا قد كافحنا، مع معلومات استخباراتية غير كاملة، لتحديد معسكرات تدريب القاعدة، وثكناتها، ومنشآت القيادة والسيطرة، ومراكز الاتصالات، ومجمعات المساندة. وقد كنا بنينا مجموعات أهداف لمنشآت طالبان الرئيسية، ومواقع الدفاع الجوي، ورادارات الإنذار المبكر. وقد حان الوقت الذي نجني فيه ثمرة ذلك الجهد.

بعد ذلك، وجهت الأركان للتنسيق مع اللواء البحري ويللي مور للتأكد من أن سفننا في المنطقة قد ألغت كل زيارات الموانئ وأن تنتقل فوراً إلى البحر. كانت صورة السفينة الأمريكية كول وهي تحترق في مرفأ عدن ما تزال تنتابني.

وبعد أن بردت شمس الأصيل وامتدت الظلال نازلة من التلال المجاورة، كنت قد شطبت من قائمتي مهام العمل الفوري واحدة إثر واحدة. وعندما كنت أعمل إلى جانب هوائيات القمر، جلس فان موني، ومساعدي، المقدم جيف هينز، إلى جواري يتدبرون الهواتف، ويستقبلون ويسلمون المعلومات والأوامر. وبعد الصدمة الأولى لصور التلفاز، اتخذ كل واحد منا الموقف البارد الاحترافي المتفاني. وأمليت تعليمات فورية إلى كل ممثل عسكري أمريكي كبير في المنطقة للإفادة باستلام الأمر بالانتقال إلى مستوى التهديد دلتا، د. قد تكون القاعدة ما تزال تخطط لتضرب المزيد من الأهداف الأمريكية، وخصوصاً الوحدات العسكرية المعزولة، ولا أريد

لقادتنا أن يؤخذوا على حين غرة من دون احتراز في حالة إن كانوا لم يتسلموا بعد الأمر من وزارة الدفاع.

وعندما حل الغسق على السطح، سمعت صوتاً غريباً، أقرب إلى أن يكون رنين جرس إليكتروني من أي شيء حي. لقد كان دعوة غروب الشمس لبوم أثينا، تلك الطيور الصغيرة ذات العينين الواسعتين التي ظهرت صورها أول ما ظهرت على عملة معدنية إغريقية قبل 2500 عام. طيور البوم الصغيرة تلك كانت قد أرسلت نداءاتها المترددة عبر تلال إيجة خلال القرون عن السلام والحرب. وهي الآن أعلنت وصول هبوط الظلام، على اليوم الأول من حرب قد تدوم لعقود إلى حد كبير.

واستندت للخلف على كرسي البلاستيك الذي يصدر صوت الصرير وأرحت كتفي. وكانت عضلة بطن ساقي الأيمن تختلج وتتصلب، وهي تذكر بليل حار في كانون الأول/ديسمبر في بنه بهووك، قبل ما يصل إلى أربعة وثلاثين عاماً مضت.

وأخبرت نائبي: "يا رايفل، أنا أخطط لأتوجه عائداً إلى تامبا بأسرع ما أستطيع."

وأجاب: "الفضاء الجوي الأمريكي مغلق، يا سيدي."

وأكد هذا الملاحون العاملون معي. سيكون من المستحيل أن تقدم خطة لرحلة جوية. ونظرت في متابعة الرحلة لمقابلة الرئيس مشرف في باكستان. فإذا كان هناك وقت لبعض لي الذراع، فهو الآن. لقد تحدث مشرف عن المساعدة الدولية في التعامل مع طالبان عندما تقابلنا في كانون الثاني/يناير. حسناً، سيكون هناك الكثير من المساعدة الأمريكية القادمة إذا التحق معنا في هذا القتال. ومع وجود ركنه في هذا العالم الآن في بؤرة تقاطع التصويب للقوات العسكرية الأمريكية فسوف يتوجب عليه أن يصرح مع أي جانب يقف وبشكل سريع.

ولكني كنت أريد أيضاً أن أرجع إلى تامبا. ولذلك أخبرت رايفل بأن يعلم هوغ شيلتون بأنني سوف أنتظر ست ساعات قبل أن أقرر إلى أي اتجاه أطير.

وبعد ذلك، عقدت اجتماعاً للتشاور مع رايفل وجين رينيوارت. وقلت: "لا بأس، هذا هو ما لدينا. إن القاعدة فقط وأسامة بن لادن يمتلكون القدرة على شن عملية من هذا الحجم. وأريدك يا جين، أنت وجيف كيمونز أن تركزوا على الضبط الدقيق لمجموعات الأهداف في أفغانستان."ثم فكرت لحظة وسألت: "ما هي آخر تقديرات الإصابات؟"

وأجاب رايفل دولونغ، محافظاً على ابتعاد العاطفة عن صوته: "تتحدث وسائل الإعلام عن أي عدد بين ستة آلاف إلى عشرة آلاف قتيل في نيويورك وحدها. وهم يراجعون ذلك، ولكنها ستكون سيئة."

وأضاف جين: "مئات عدة مفقودون في وزارة الدفاع، سيدي. وهناك حوالي ثمانين تأكد موتهم حتى الآن."

وقلت: "دعونا نبني مجموعات الأهداف على خمسة افتراضات: الأول، أن الهجوم على أمريكا قد وجهته القاعدة التي تعمل من خارج أفغانستان. والثاني، أن الذين خططوا وأمروا بالضرب يتمركزون في أفغانستان. والثالث، أنه سوف يكون هناك قرار قومي بالضرب. والرابع، أن السبب الداعي لهذا العمل لن يكون موضع خلاف من الناحية القانونية. والخامس، أننا سوف نتسلم إما موافقة أو تعاوناً من كل القادة في المنطقة لضرب أفغانستان."

وأضاف جين: "تسلمت ذلك، سيدي"

وقلت: "لا بأس، دعونا نذهب للعمل."

أحضر لي فان موني تقارير الموقف السري عن صورايخ توماهوك الذي كنت قد طلبته من قبل. سيكون لدينا 80 صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي في سلال الإطلاق في البحر العربي في غضون أربع وعشرين ساعة، وزيادة حتى 200 في غضون ثمان وأربعين ساعة. وعندما قرأت التقرير كانت الغواصات الهجومية الغاطسة صنف لوس أنجيلوس ومدمرات صنف بيرك تسير مسرعة نحو مضيق هرمز بأقصى سرعة ممكنة للسفن.

هبط الظلام الآن، وتوقفت النسمات تماماً. وبوم أثينا ينظر ويزقزق، وأنا عملت في البنود الأخيرة من قائمتي للعمل الفوري.

هذه الخطوات العملية ساعدتني على أن أحافظ على أفكاري منسجمة. ولكنها لم تكن سهلة. كان عقلي يتقافز جيئة وذهاباً بسرعة عالية. ما هي قوة جندنا بالضبط في المنطقة؟ حالة جاهزيتهم؟ وكم عدد المجموعات العملياتية التي تستطيع القاعدة أن تضعها في الميدان؟ هل فعلت ما يكفي لحماية قواتنا؟ هل قتل أي واحد من أصدقائي في وزارة الدفاع؟

لم يكن لدي أدنى شك أننا ذاهبون إلى الحرب. وستكون حرباً لا تشبه أي حرب سبق أن شُنَّت من قبل. وسيكون هناك قرار قومي لوضع القوات على الأرض، وأمريكا الآن نشرت تقانة عسكرية لم تكن قد خطرت ولا في الخيال عندما كنت مع فرسان الخيالة الأولى في عاصفة الصحراء، قبل عقد واحد فقط من الزمان. وقائمة الأماني لدى قوة مهام مناورات لويزيانا هي الآن معدات عملياتية. والأسلحة لن تكون مشكلة. ولكن هل كنت أنا على مستوى التحدي بكوني أعلى قائد مقاتل في هذا النوع الجديد من الحرب؟

جلست مستنداً إلى الخلف في الكرسي البلاستيكي القاسي على ظهر الفندق، وتفكرت في ذلك الحديث الذي أعطيته إلى أركان الاستخبارات في القيادة المركزية في يوم الجمعة الماضية. أمريكا في حالة صدمة عميقة، وهي تترنح من صور الطائرات وهي تتحطم في المباني وتلك الأبراج الشامخة تنهار مثل بهارج ملتهبة. هل سيقتنع إخواني المواطنون الآن بأن يتخلوا عن حرياتهم الفردية التي كسبوها بصعوبة ليجنوا أمناً أكثر بقليل في عالم هو بوضوح غير مأمون؟

وعندما وقفت، جاءتني فكرة ثانية. اليوم مثل يوم بيرل هاربر. العالم قبل اليوم كان في طريق، ولن يكون أبداً على الطريق نفسها ثانية. نحن نقف اليوم على منعطف في التاريخ.

لاحقاً في ذلك المساء، قمت أنا وكاثي باصطحاب الملاحين الجويين إلى عشاء وقد أخذ الإرهاق مني مأخذه ولم يبق شيء لأعمله غير الانتظار للترخيص بالطيران. أما أعضاء أركاننا المسافرون فقد بقوا خلفنا، مقيدين إلى هواتفهم، وحواسيبهم، لقد مشينا خلال الواجهة المائية الهادئة إلى الفناء المضاء بالمصابيح الكهربائية والمشغول بكتل الحجر الرملي لمحل مايلوس تافيرنا. وحالما تقاطرنا إلى طاولتنا الركنية، انخفض الحديث المتحمس المتدفق في العادة للزبائن اليونانيين إلى أن صار همساً. وتفرست في الطاولات المجاورة، فإذا الوجوه في كل مكان بادية الحزن. واقترب منا يانّيس، نادلنا المبتسم عادة، اقترب بصمت وصافحني كأنه في جنازة.

وقال الرجل: "كل الناس آسفون، أيها الجنرال."

بعد منتصف الليل تماماً، قدم رايفل دولونغ تقريراً عن الحالة في وزارة الدفاع. وقال: "إن وزير الدفاع رامسفيلد بقي في المبنى وساعد في إخلاء بعض الإصابات. وتدعو خطة الأزمة بنقل نائب وزير الدفاع إلى منشأة قيادة بديلة. الموقع آر، مع الأعضاء الرئيسيين للقيادة القومية. وأعتقد أنهم الآن في المكان المحدد، وقدّرت أن رامسفيلد ما يزال في وزارة الدفاع، وبول وولفوفيتز في الموقع آر.

وأغلقت عيني وهززت رأسي. إن الانتقال إلى الموقع آر كان جزءاً من خطة أمريكا للرد على هجوم نووي وشيك. فما الذي وصلّنا إليه؟

وبعد أن انقضى الليل، حدّث رايفل معلوماتي عن جاهزية قواتنا، ومواقع مجموعات المعركة لحاملة طائراتنا، وجدول "القوة العالمية" للمهام التي تقوم بها قاذفات ستيلث بي-2 (المتسللة خلسة) التي تطير من قاعدة القوات الجوية في وايتمان في ميسوري.

وكنت قد تلقيت إنذاراً استخباراتياً بأن ما قد يصل إلى ثلاثين ضربة إرهابية إضافية كانت ممكنة في كل أنحاء العالم. ولكن لم يكن هناك المزيد من الهجمات...

حتى الآن. ربما كان ذلك لأننا رفضنا الكلام، واحترزنا بإغلاق النقاط المعرضة للهجوم برفع مستوى التهديد إلى دلتا، د.

أما الآن فكانت سي ان ان تبث شريطاً عن الرئيس بوش وهو يطير راجعاً إلى أندروز ويهبط في مرجة البيت الأبيض من الطائرة العمودية البحرية رقم واحد(*). الأزمة المباشرة انتهت: لقد رجع الرئيس إلى المكتب البيضاوي، ووزير الدفاع كان في وزارة الدفاع المجروحة. كانت أمريكا الآن ترسم على وجهها تعابير "الحزم الشديد." لقد كنت فخوراً ببلادي.

في الصباح التالي، تسلم ملاحو الطائرة الإذن من إدارة المرور الجوي اليونانية لنقلع من كريت ونتوجه غرباً. لم نكن نملك الترخيص لدخول الفضاء الجوي للولايات المتحدة، ولكني كنت واثقاً أن الترخيص سيأتي.

بعد تسعين دقيقة، عندما كنا نعبر البحر الأبيض المتوسط الغربي، تحدثت بالهاتف المأمون مع هوغ شيلتون.

وقال: "يا توم، كل واحد في واشنطون، من الرئيس فنازلاً، منكبّون على هذا الموضوع."

وسألت: "إننا ننظر في عمليات خطيرة ضد القاعدة وأفغانستان!"

"اعتبر هذا ممكناً، يا توم"

في الوقت الذي صرنا فيه فوق إسبانيا، كانت وزارة الدفاع قد صرحت للطائرة سبار 06 على طول الطريق إلى تامبا. وعملت باستمرار على طاولتي، ولعبت لعبة الحرب مع أركاني الموجودين على متن الطائرة والقيادة العليا في القيادة المركزية. وقد قوطعت بعدة مكالمات هاتفية. الأولى كانت من جلالة الملك عبد الله ملك الأردن، وهو حليف قريب وصديق شخصي. وقال: "تستطيع أن تعتمد على الأردن ليقف مع أمريكا."

(*) أي طائرة من سلاح مشاة البحرية الأمريكية تحمل الرئيس الأمريكي تدعى البحرية واحد، وهي عادة طائرة عمودية من نوع معين.

"ذلك يعني الكثير الآن تماماً، سيدي."

ومكالمة أخرى جاءت من الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، ولي عهد البحرين وقائد القوات العسكرية لأمته. وقال: "البحرين معكم." وهكذا فإن جهودنا في الالتزام طوال الأربعة عشر شهراً الماضية تثمر على ما يظهر. فدول الخليج هذه ستقف مع أمريكا في المدة القادمة.

كنت ما أزال أعيش على القهوة والأدرينالين، ولكني عرفت أني كنت بحاجة إلى بعض النوم في الحال. وعندما جلست للخلف لأتمدد في مقعدي، دخلت كاثي المقصورة، وكانت عائدة من المطبخ مع شراب كوك للحمية. وعندما كانت هناك تحدثت مع واحد من ضباط صف الاتصالات، وأشار، عرضاً تقريباً، أننا كنا نمتلك السماء لنا وحدنا. "جميع الذبذبات اللاسلكية صامتة. ليس هناك أي مرور فوق الأطلسي."

إن الصدمة المتراكمة طوال الست عشرة ساعة الماضية قد ضربت كاثي فجأة بشدة، وتحول ذلك التعليق الوجيز إلى صورة قاسية لعالم أُخلي تماماً بشكل شرير من التجارة المسالمة. هي، أيضاً شعرت بمنعطف التاريخ.

هبطنا في ماكديل بعد الساعة 1500 تماماً في يوم الأربعاء في 12 أيلول/سبتمبر. وكنت قد نلت ما مجموعه أربع ساعات من النوم في الثلاثين ساعة الماضية، ولكن كان هناك أيام طويلة عديدة، وليال، تنتظر أمامنا.

عندما غادرنا الطائرة تحدثت مع جيف هينز. "أرجو أن تتأكد من قيام المساعدين المتطوعين بوضع ذلك السرير في مكتبي. فأنا سوف أنام في المقر لبعض الوقت."

راقبتني كاثي بصمت وأنا أتحدث. لقد دام زواجنا طوال ثلاثة وثلاثين عاماً تقريباً وحربين. وهذه ستكون حربنا الثالثة. كانت تعرف عادات عملي جيداً ولم تشتك أبداً.

تعانقنا، وقالت: "تأكد أنك تأكل وتنال بعض النوم عندما تستطيع."

"كوني على يقين، يا عزيزتي. " حاولت أن يكون صوتي مقنعاً. وكانت هي تعلم بشكل أفضل.

كنت ما أزال في ملابس الرياضة من رحلة الطائرة. وفي مسافة السواقة القصيرة إلى مقر القيادة المركزية، لاحظنا، برغم ذلك، أن رجال شرطة أمن القوات الجوية يلبسون البزات الصحراوية المموهة، وصدرية واقية من الرصاص، وخوذات، وكانوا مسلحين برشاشات آلية ام-4 وبنادق يدوية.

وقامت مفرزة من رجال الطيران قرب أكبر حظيرة بتكديس أكياس رمل خضراء في نقطة تفتيش على شكل حذوة حصان وارتفاع صدر الرجل. وعندما عبرنا، رأيت رشاشاتهم ام-60 السوداء معبأة بشريط ذخيرة. أكياس الرمل، والرشاشات، إشارة عفنة في النسمات الرطبة، كانت البزات والخوذات مختلفة، ولكن الأسلحة كانت هي نفسها. كان يمكن لهذا الخط أن يكون خط الطيران في فيتنام في أثناء هجوم تيت.

وعلى الرغم من ذلك، فالحرب، في هذه المرة، قد أحضرت إلى تراب أمريكا.

بالنسبة إلى أركان القيادة المركزية وبالنسبة إلي، كانت الأيام العشرة ولياليها الممتدة من يوم الثلاثاء 11 أيلول/سبتمبر إلى يوم الجمعة 21 سبتمبر 2001، كانت وقتاً للتركيز الشديد، والإعياء، وفرط الحمل من الكافئين. وبدت بعض الأيام وكأنها لا تنتهي أبداً، ومرت بعض الليالي إلى الأمام بتشويش سريع. وكان هذا، بطريقة ما، مثل القتال، ولكنه بدون الضجيج، أو الإحساس بالخطر الوشيك، أو بتلك الروح العالية الغريبة التي تعقب التماس.

ولكني أمتلك فعلاً ذكريات حية جداً عن ذلك الوقت.

في المقر في ذلك الأصيل الأول، غيرت إلى البزة الصحراوية المموهة واجتمعت أولاً مع رايفل دولونغ ومع رئيس أركاني، العقيد في الجيش مايكل هيز.

وكان مايكل احترافياً صلباً، إنه رجلٍ عرفته منذ العام 1981 في ألمانيا. وما كنت لأطلب إلى جانبي أناساً أفضل من رايفل ومايكل هيز... وكنت أعرف ذلك.

وتفرست في كدسة من الوثائق السرية التي وضعت على طاولتي حسب ترتيب الاستعجال، ولاحظت أن فريق عمل الأزمة كان يعمل على مدار الساعة منذ أن بدأت الأزمة. وقلت: إن جميع الأركان سوف يعملون ساعات طويلة. وأريد أن أتأكد أن الناس لا يحترقون إعياءً. هذه الأزمة ليست مجرد أزمة عابرة. نحن في هذه الأزمة لمدة طويلة.

وكتب مايكل ملاحظة سريعة وقال: "نعم سيدي مفهوم."

وسأل رايفل: "هل تريد أن ترى المديرين في هذا الأصيل؟"

وقلت: "أعطني عشر دقائق" وأنا أنظر إلى رسائلي الموضوعة على سجل الأحداث اليومية.

عندما غادرا، نظرت إلى الحامل الذي يقع إلى يمين طاولتي، وعليه خريطة تعبوية لأفغانستان. بينما شغلت خريطة العراق، حيث تشتبك القيادة المركزية مع دفاعات صدام حسين الجوية في مناطق حظر الطيران، حاملاً آخر إلى اليسار من طاولتي.

ارتشفت رشفة من القهوة الساخنة، والتقطت هاتف المفتاح الأحمر خلف طاولتي، فمع قدرة هذا الهاتف على الترميز للأسرار العليا وقدرته على البرمجة من نقطة إلى نقطة، سيكون وصلة مهمة لي مع وزارة الدفاع ومع البيت الأبيض في الأسابيع القادمة. لمست زراً واحداً على الهاتف، فأجاب هوغ شيلتون فوراً.

وقال هوغ: "الرئيس مصمم على العمل، يا توم. والوزير رامسفيلد يريد خيارات عسكرية لأفغانستان."

"متى يريدها؟"

"الناس في البيت الأبيض وفي المبنى يسيرون قدماً بالعزم الكامل.كم من الوقت يلزمك لتستطيع أن تقدم سلسلة كاملة من التصورات العملياتية؟".

سلسلة كاملة. لا مزيد من الردود الثأرية الرمزية. لا مزيد من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي التي تكلف ملايين الدولارات وتقذف على الخيام الفارغة. لا مزيد من وخزات الدبابيس.

توقفت قبل أن أجيب. كل القيادات المقاتلة الموحدة مكلفة أن "تبني" وتديم خططاً معقدة لتواجه تنويعة واسعة من الطوارئ. فعلى سبيل المثال، قيادة المحيط الهادئ الأمريكية لديها العديد من خطط العمليات المفصلة الموضوعة على الرف لترد على عدوان من كوريا الشمالية. وعشرات من الخطط المماثلة كانت موجودة في القيادة الجنوبية والقيادة الأوروبية.

ولدينا في القيادة المركزية أكثر من عشر مسودات للطوارئ، تضع خططاً دقيقة لحالات الرهائن، وإخلاء السفارات، وفتح مضيق هرمز، والتدخل إذا تجاوز العراقيون "خطوطاً حمراً" معينة. ولدينا مجموعات أهداف القاعدة وطالبان في أفغانستان وخطط لضرب تلك الأهداف بصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي وبالقاذفات المأهولة بالطيارين.

ولكن القيادة المركزية لم تطور خطة للعمليات الأرضية التقليدية في أفغانستان. ولا تم اتخاذ الترتيبات الدبلوماسية مع جيران أفغانستان من أجل تحديد القواعد، والتمرحل، والطيران فوق الأراضي الأجنبية، وحق الدخول(*). وببساطة لم يكن هناك رغبة في واشنطون من أجل القتال وجهاً لوجه في هذه البلاد النائية، البدائية، القارية المغلقة، التي تبعد بمسافة نصف محيط الكرة الأرضية، لا رغبة منذ 1993 على الأقل.

ومن لهجة هوغ شيلتون، اتضح أن هذا يوشك أن يتغير. القوات العسكرية الأمريكية كانت ستذهب إلى الحرب في بلاد حشد فيها الاتحاد السوفيتي قبل نحو

(*) الإذن والحرية أو القدرة على الدخول والاقتراب والاتصال أو المرور من وإلى مكان، أو أشياء أو أشخاص.

عشرين عاماً 620.000 مقاتل طوال إحدى عشرة سنة، وكلفته 15.000 قتيل و 55.000 جريح تقريباً.

كنت أعرف أن دون رامسفيلد كان يريد نوعاً مختلفاً من العمليات إلى حد بعيد. ففي الأشهر الثمانية الأخيرة، تعلمت الكثير عن عقل رامسفيلد. قد يكون وزير حرب جيداً تماماً. وكان هناك مشكلات عديدة جداً مجبولة في طبيعة شن حرب في أفغانستان النائية، القارية، المغلقة الجبلية تجعل من واجب أي خطة قابلة للعمل أن تتجاوز التفكير التقليدي. ولم يكن رامسفيلد يملك إلا وقتاً صغيراً لما رآه حلولاً تفتقر إلى الأصالة التي تتحدى المشكلات الجديدة. كان يحب التفكير الخلاق بالعاصفة العقلية. واستجاب استجابة جيدة للمفاهيم الواسعة الخيال. ولسنوات خلت كنت قد عملت في التجديد وفي بناء المرونة التعبوية. والآن حان الوقت لنرى إن كانت تلك الجهود سوف تثمر.

لقد ساعدني أن أعرف أن الرئيس كان مصمماً على العمل. كانت أمريكا قد وصلت إلى نقطة النهاية مع أنصاف الإجراءات ووخزات الدبابيس، كنا في حالة حرب.

"هوغ، سوف يكون لديك خيارات تصورية مع الغد. وافتراضي هو أن أمريكا لن تفعل أي شيء ما لم نعزم على فعل شيء ما. ولن تتسلم مني خطة صفعةٍ من معصم تطلق النفاثات والصواريخ وتأمل بنتيجة طيبة."

"أفهم وأوافق، يا توم."

وتابعت: سوف أستغرق أسبوعاً إلى عشرة أيام من أجل مسار العمل المقترح الكامل. وفي أثناء هذا الوقت، يجب أن نبدأ في تمرحل السفن، والطيران، والجند لنقيم الشروط من أجل: أولاً: تدمير القاعدة في أفغانستان، وثانياً: إزالة نظام طالبان. وهذان العملان هما اللذان يجب أن يكونا المهمتين الواجبتين الرئيسيتين.

وقال هوغ: "متفق عليه. الزمن حيوي."

كنا كلانا نفكر في تحذيرات استخباراتية من هجمات إرهابية جديدة محتملة. وربما تكون المسألة مسألة الرد بالضرب قبل أن نضرب ثانية. كان الزمن حرجاً فعلاً.

وأعدت الهاتف الأحمر إلى مهده وفكرت للحظة، حول نوع التهديد الجديد الذي كانت أمريكا تواجهه، والنوع الجديد من الحرب التي كنا على وشك أن نشنها.

لقد تحدث القادة والعلماء دائماً عن فن شن الحرب. ومع ذلك فإن أي حرب تتضمن مجابهة حقائق معينة قاسية، وباردة. علم الحرب هو اكتساب أكمل فهم ممكن لنقاط قوة العدو، وقدراته، ونواياه، وإعطاء الدراسة الكافية للأرض التي سيحدث القتال عليها، وتقويم متطلبات المواصلات، ومساندة القوات بالأعداد الكافية، وفي هذه الحالة التي تقع على مسافة نصف الطريق حول العالم. واختيار المجموعة المشتركة الصحيحة من الوحدات لإنجاز المهمة، وهي الناحية المعروفة في التخطيط العسكري باسم "ارتباط القوات" والذي يستدعي مقارنة الأسلحة والقدرات الصديقة مع الأسلحة والقدرات لدى العدو. وكل هذه العناصر أسلمت نفسها للنمذجة، وللأحكام الصارمة للتحليل التجريبي.

وكل هذا العلم سوف يتوجب شرحه لدون رامسفيلد، ولفريق الأمن القومي، وفي نهاية المطاف لجورج دبليو. بوش. وبعدئذ سوف نناقش فن الحرب: قيمة سرعة المناورة، وكتلة القوة، والاقتصاد بالجهد، والمخاطرة، والتوقيت ونهاية المهمة..(*) وإستراتيجية الخروج.

الخطة التي سأعرضها سوف تشتمل على الفن والعلم معاً. فلن نكرر أخطاء السوفيت. نحن سوف ندمر شبكة القاعدة في أفغانستان. وسوف نزيح الطالبان من السلطة. وكما يمكن لأبي أن يكون قد قال: "الكثير من العمل لنفعله... وليس الوقت طويلاً لفعله."

(*) مجموعة الشروط المطلوبة التي تحدد إنجاز القائد لأهدافه.

في وقت متأخر من أصيل يوم 12 أيلول/سبتمبر، تقاطر إلى مكتبي كبار أركان القيادة المركزية، ومن جملتهم رؤساء الإدارات. ولم يكن هناك أي شيء من المزاح المعتاد قبل الاجتماع.

وعندما نظرت إلى وجوههم، كنت أشعر بالامتنان لنوعية الفريق الذي جلس معي في ذلك الأصيل من أيلول/ سبتمبر.

دولونغ كان ضابطاً لامعاً، كاملاً، تمرس في القتال وهو شاب يطير في الطائرات العمودية البحرية في أثناء القتال الكثيف في فيتنام، ثم ساعد لاحقاً في الإخلاء الفوضوي لسايغون. ومثل معظم ضباطي الكبار، كان قد تولى قيادة وحدات مقاتلة في الحرب، ولقبه رايفل "البندقية"، وهو لقب مكتسب مستحق.

وجين رينيوارت، مدير العمليات، اكتسب تعيينه ضابطاً من مدرسة تدريب الضباط وتولى لاحقاً قيادة سرب في حرب الخليج من نفاثات الهجوم الأرضي نوع ايه-10 وورت هوغ. في التسعينات من 1990 صار الجنرال القائد لقوة المهام المشتركة لجنوب غرب آسيا، وهي القوة التي قامت بالدوريات في المنطقة الجنوبية لحظر الطيران في العراق. وهذه المهمة أعطته خبرة لا تقدر بثمن، لا بالقوة الجوية وحسب بل بالتحالفات المتعددة الجنسيات أيضاً، وهي خبرة ستكون ذخراً في الشهور القادمة.

وكان مديري للإمداد والتموين هو اللواء في الجيش ديني جاكسون. فإذا أطلقنا جهداً مستمراً في المناطق النائية من جنوب غرب آسيا، فإن تحدي الإمداد بعشرات الآلاف من الأطنان من المعدات، ووقود النفاثات، والذخائر، والطعام، والخيام، ومستشفيات الميدان، والمولدات، ومواجهة احتياجات المعونة الإنسانية لملايين اللاجئين، ستكون كلها مسؤوليته. وكان ديني ضابط إمداد وتموين واسع الخيال، ونشيطاً، ومعجباً متحمساً بتجديدات القطاع الخاص. وفي الحقيقة، فقد سبق له أن استعار أساليب من المدير التنفيذي الرئيس جيف بيزوس في أمازون

دوت كوم لبناء نظام توزيع محوسب، وفق أحدث الأفكار لقواتنا المنتشرة في المنطقة.

أما مدير الاستخبارات، فكان العميد في الجيش جيف كيمونز، وهو خبير في الاستطلاع الإستراتيجي واستطلاع ميدان المعركة. ويمتلك خلفية في العمليات الخاصة، التي كنت أعرف أنها ستثبت أنها لا تقدر بثمن في الأسابيع القادمة، وكان من بين أكثر العسكريين خبرة من المشغلين العاملين للمركبات الجوية بدون طيار، ومن جملتها مركبة بريديتر الجوية، والنفاثة الجديدة بعيدة المدى في القوات الجوية المعروفة باسم غلوبال هوك (الصقر العالمي). وكان جيف ماهراً في إدارة مصادر الاستخبارات البشرية، التي ساعدت على تفسير خيبة أمله في تقارير الاستخبارات غير المحددة والقديمة التي تلقيناها عن القاعدة.

وكان مديرنا لشؤون الشرطة العسكرية هو العميد البحري جي "رابت" كامبل، وهو محترف مطلع ستثبت مهاراته التفاوضية أنها حاسمة في العمل مع وزارة الخارجية ومع سفرائنا الإقليميين في ترتيب القواعد المطلوبة، والتمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية، في البلاد المحادّة لأفغانستان.

وضابطي الكبير الجديد من وكالة الاستخبارات المركزية كان بات هيلي، وكان واحداً من عدة صلات وصل استخباراتية موثوقة طورتها القيادة المركزية مع الوكالات الحكومية الأمريكية، ومع الحلفاء، والمنظمات الدولية. في أثناء الفوضى المحيطة بكارثة، يحدث لا محالة قَدْر من دوران الدواليب السريع بدون مسير، وقَدْر من التخبط. وفي هذه الأزمة كان الغبار ما يزال حرفياً يتساقط. في مثل هذه الحالة، كانت المنظمة ذات العلاقات المكثفة عمودياً وأفقياً معاً، تستطيع أن تمارس قوة مؤثرة غير معتادة. وبات هيلي كان يمتلك تلك العلاقات، وكنت قد عزمت على استخدامها.

وكان صلة الوصل بيني وبين وزارة الخارجية مستشاري السياسي السفير مارتي تشيشيس، موظف مجرب في السياسة الخارجية مع خبرة في شرق إفريقيا،

والشرق الأوسط، وجلس مارتي معي مباشرة في حلقة القيادة. كنت أعرف أنني سأستمد منه كثيراً ونحن نستعد للذهاب إلى الحرب. فعلى الرغم من أني قمت بإحدى عشرة رحلة إلى المنطقة، وتحادثت مع العديد من القادة الرئيسيين، فقد كان ما يزال لدينا الكثير من العمل الذي ينتظرنا لنؤسس تحالفات تعمل مع البلدان المحيطة بأفغانستان القارية المغلقة.

وقلت لفريقي: "كنت قبل قليل على الهاتف مع الجنرال شيلتون، وقد أمر الرئيس بوش الوزير أن يُعِد رداً قوياً على هجمات الأمس." كانت الوجوه المحيطة بي كئيبة، ولكنها مركزة ومصممة.

لقد سبق لي أن تسلمت قيادة وحدات من الجيش ابتداء من بطارية مدافع هاوتزر وصعوداً حتى جيش ميداني، أما الآن فأنا أتولى قيادة منظمة ضخمة متعددة الخدمات. وسبق لي أن عملت أيضاً مع عدد كاف من القادة المفكرين الفعالين لأتعلم أن من الجوهري في المراحل الأولى من الأزمة بالنسبة إلى الشخص المسؤول أن يجعل رؤيته واضحة. إذا كنت تعرف ماذا يريد الرئيس فإنك ستعمل على نحو أكفى.

وقلت: "إن من الواضح أن أمريكا سوف تثأر. "ثم سكتّ لأترك الرسالة تترسخ. " والسؤال هو كيف؟ ومتى؟ وقد أخبرت شيلتون أن الأفضل ألا نفعل شيئاً إذا لم نكن عازمين على الرد رداً قوياً. لقد عانت الولايات المتحدة أسوأ هجوم منذ الحرب العالمية الثانية. لقد ابتعدنا كثيراً عن نقطة الانتقام الرمزي. أنا واثق أن هذا الرئيس يعتزم أن يقاتل الإرهاب بطريقة جادة. وأتوقع أن ندمر القاعدة في أفغانستان، وأن نزيل الطالبان من السلطة. إنهما يتعايشان عقائدياً ومادياً."

وذهبت إلى الخريطة. "وهكذا، فأنا أفترض أن القيادة المركزية ستكلف بأن تدير عمليات قتال كبيرة في أفغانستان، وأما التمرحل وإقامة القواعد فسيكونان في آسيا الوسطى وجنوب غرب آسيا. ويريد الوزير أن يعرف كيف نعتزم إدارة هذه

العملية. لدينا خطة معقدة يجب أن نبنيها. ولكننا لا نملك الكثير من الوقت. وقد أخبرت هوغ شيلتون بأني سأقدم توصية كاملة في غضون أسبوع أو عشرة أيام."

وعندما انتهى الاجتماع، كنت واثقاً أن هؤلاء الرجال الجيدين فهموا كلهم المهمة التي كنا نواجهها. وكانوا يعرفون أيضاً معنى العمل الشاق، وكم ستدعو الحاجة إليه في الأيام والليالي القادمة.

وقلت: "كلكم محترفون. وأنا سعيد بأن كل واحد منكم موجود في هذا الفريق."

كان الوقت في أواخر الليل، وربما كان في مطالع الصباح. كنت قد حصلت على غفوة قبل ذلك وأكلت طعاماً بارداً كبيراً من بيرغر كنغ. وأنا الآن أحتسي الدلة الثانية من القهوة.

وعندما رجع العديد من المديرين إلى مكتبي لمتابعة مناقشتنا، بدا عليهم التعب الذي كنت أشعر به. وجهت نظرهم نحو خريطة أفغانستان، وأنا ألوح بسيجار لم أشعله في شكل بيضاوي للإشارة إلى الحدود.

"لا ريب، أيها الرجال، في ذلك، إن ابن الك... ها هو ذا بالتأكيد محصور ومحاط باليابسة. فلا نستطيع أن نستخدم القدرات البحرية البرمائية. ومهما يكن الشكل النهائي للعملية، فسوف تستند إلى النقل الجوي. هل نستطيع أن نعتمد على حقوق الطيران فوق البلدان الأجنبية طوال الفترة؟ وأين نقيم مراحل التمرحل؟ وأين نقيم القواعد؟ "وأشرت نحو إيران على حدود أفغانستان الغربية. " الملالي ليسوا مهتمين بالسماح لنا بالدخول. وفي الشمال، ربما كنا نستطيع أن نعقد صفقة مع الرئيس كريموف في أوزبكستان. وربما نعقد حتى مع التركمان باشي. "فرئيس تركمانستان، سابارمراد نيازوف، كان يعرف بالتركمان باشي، " أبو جميع التركمان." وكان نيازوف متقلباً زئبقياً، وأحياناً كان مستبداً بلا رحمة، ولكنه كان يعترف بالقوة ويحترمها.

"ستكون أوزبكستان، طبعاً، حيوية للعملية. وتحالف الشمال يقف على حدودهم مباشرة. ولكن الرئيس كريموف يجلس على السياج،لم يلتزم بعد لأي من الطرفين. ونحن نحتاج إلى قواعد تقام على أرضه، وخصوصاً هنا، خارشي- خان أباد. ولكن يجب علينا أن نقنعه بأننا سنستمر في المضمار حتى النهاية بعد أن ندخل في السباق."

في أثناء اجتماعين في السنة الماضية عقدتهما مع الرئيس إسلام كريموف، كنت قد تعلمت عدة أمور مهمة: كان قلقاً بشأن الحركة الإسلامية المتوحشة بشكل متزايد في أوزبكستان، وبشأن مجموعة إرهابية نشأت في الوطن وقاتلت إلى جانب القاعدة وطالبان وضد تحالف الشمال. وكان خائفاً من التدخل الروسي إذا اندلعت الحرب في المنطقة. وناقشنا، هو وأنا، الاستخدام الممكن للقاعدة الجوية السوفيتية القديمة في خارشي- خان أباد كي-2، كما كانت تعرف، ولكن النقاش كان بتعابير عامة. وهذا كان، طبعاً، قبل 9/11، أما الآن، وقد تصاعدت المخاطر، فإن قيمة كي-2 تصاعدت أيضاً، وكان كريموف يعرف ذلك. ولكن الرئيس الأوزباكستاني كان حذراً وواعياً لجهود أمريكا الفاشلة في الصومال. ولم يكن مقتنعاً بأن الولايات المتحدة كانت جادة بشأن التزامها لآسيا الوسطى.

وأضفت: "أعتقد أننا نستطيع أن نحل قضايانا مع طاجيكستان، ومع قيرغيزستان. وأما باكستان فمسألة أخرى. إن الرئيس مشرف يحبنا ويحترمنا، ولكن لديه سكان متطرفون إسلاميون أقوياء الاحتمال لا بد له من التعامل معهم. ولا أستطيع أن أرى إدارة للعمليات داخل أفغانستان من دون إقامة قواعد، وترتيب التمرحل، ومساندة للطيران من فوق الأراضي من باكستان."

وأومأ جين برأسه. "وحقوق الرمي من فوق وإلى ما وراء باكستان، أيضاً، أيها الرئيس. وفي أي شكلٍ خفضت الخطة، فإننا سوف نستخدم الكثير من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. يجب أن يكون لدينا إذن باكستاني، أو القبول السلبي بدون اعتراض على الأقل، لأن كل تلك الطيور سوف تطير عبر مسافة قد تصل إلى مائتي ميل من بلادهم متوجهة إلى الأهداف."

وجاءت مكالمة أخرى من رئيس الخدمات، وانفض اجتماعنا العائم المتحرك مرة ثانية.

بعد ذلك، بعد حمام وتغيير الملابس إلى بزة جديدة، ذهبت إلى القاعة لأرى مارتي تشيشيس. وعندما كنا نتجاذب أطراف الحديث، دون بعض الملاحظات على دفتر أصفر. إحدى الطرق لحل مشكلات إقامة القواعد وترتيب التمرحل، كما كنت أعرف، ستمر عبر كولن باول في الخارجية. عندما يهاتف باول، يرفع سماعة الهاتف فيكون على الطرف الآخر رؤساء دول ورؤساء وزارات.

والمسار الآخر للمفاوضات سيمر من عندي، مباشرة إلى رؤساء الدول، ووزراء الدفاع، والقادة العسكريين الذين كنت أعرفهم أفضل معرفة.

وقال مارتي: "لقد بلغت مكالمات وبريداً إليكترونياً إلى جميع المكاتب المناسبة في الخارجية. وقد أعلمَ الوزيرُ من قبلُ كلَّ الناس أن هذه مسألة ذات أولوية."

خارج مكتبي كان هناك صباح آخر ساطع، حار من أيام فلوريدا. وفي الداخل كان الجو بارداً، والستائر مسدلة ضد الوهج الباهر. هل كان اليوم هو الخميس أو الجمعة؟ لقد فقدت سير الزمن. ورجع المديرون الأساسيون. وقلت لهم: "الخلاصة هي أن الأعمدة الطويلة لهذا العمل ستكون هي الوصول، والاستدامة. أي عملية سنديرها في أفغانستان سوف تعتمد على النقل الجوي... آلاف من الأطنان في كل يوم."

وأومأ ديني جاكسون، مديري للإمداد والتموين، بسعادة، ولم يكن على ما يبدو منزعجاً من التحدي.

"وسوف تواجهنا كارثة إنسانية محتملة ويجب علينا أن نمنع حدوثها من بداية العملية. إن قسماً كبيراً من أكثر من 26 مليون أفغاني يعتمد على المنظمات غير الحكومية من أجل خبزهم اليومي، فضلاً عن البطاطين، والوقود للشتاء، والبذور لزراعة الربيع. ولكن المنظمات غير الحكومية لا تبقى عادة في المنطقة في أثناء

القتال." ونظرت نحو ديني. "ربما سيكون من المحتمل أن يتوجب علينا أن نتوصل إلى إيجاد طريقة لإمداد عدة ملايين من الناس المشردين داخلياً بحاجاتهم الأساسية عن طريق الجو إلى أن تستقر الحالة العسكرية."

وقفت، ومددت ساقي المتصلبة. وقلت: "الأرض، انظروا إلى هذا المكان. لديكم قمم جبال هندوكوش ترتفع فوق عشرين ألف قدم، ولديكم حواف في هذه السلاسل الطويلة الممتدة شرقاً وغرباً ترتفع أكثر من اثني عشر ألف قدم، ومعظم الممرات تراوح في الارتفاع بين تسعة آلاف قدم وأحد عشر ألف قدم. ماذا سيفعل ذلك بعمليات الطائرات العمودية؟"

وتكلم بات هيلي. "أيها الجنرال، يروي الناس الذين يقفون إلى جانبنا في تحالف الشمال في تقاريرهم أن الطيران بالطائرات العمودية في أفغانستان كريه. وأن الثلج سيهطل على الجبال والوديان العالية في غضون أسابيع قليلة، وهو ما سوف يعقد الأمور."

وقلت: "لا بأس. ما نوع العمليات التي نقترحها؟ إن الرئيس سيريد أن يذهب ويدخل هناك وينظف البيت. ما هي الخيارات العسكرية التي نعرضها عليه؟"

وأجاب رايفل دولونغ: "لدى جيف وجين قائمة بمرشحين جيدين لضربة صلبة من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. فإذا كان الرئيس يريد أن نبدأ بالحركة فوراً، فلدينا الأهداف."

قرأت القائمة. سوف نستخدم صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي لهدم نظام الدفاع الجوي المتكامل للعدو، لتمهيد الطريق للضربات الجوية التقليدية. ونظام الدفاع الجوي المتكامل لدى طالبان لم يكن قوياً، ولكنهم كانوا يملكون رادارات إنذار مبكر ومواقع صواريخ سطح-جو من صنع سوفيتي. وكذلك، فإن مهام صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي سوف توهن عزيمة العدو وتخفض قدرته القتالية، ولذلك فإن معسكرات تدريب القاعدة وثكنات الطالبان التي كانت مخصصة لإيواء عدد كبير من الجند، كانت هي أيضاً أهدافاً قيمة.

ولكن الضربات التي سنطلقها يجب أن تكون دقيقة للغاية. وستكون الإصابات غير المقصودة في المدنيين، والأضرار الجانبية، مصدراً كبيراً للقلق.

وقلت: "عندما نبدأ بالحركة، لا نريد أن نرى الكثير من القتلى غير المحاربين في سي ان ان."

وأضاف رايفل: "أو على شاشة الجزيرة."

وقلت: "تسلمت ذلك." فقناة الجزيرة الفضائية، الناطقة باللغة العربية تقيم قاعدتها في قطر، وقد ساعدت في تحويل القاعدة وبن لادن إلى أبطال في "الشارع" العربي الإسلامي.

سيكون أحد أسلحتي المفضلة للاختيار في الضربة الأولى هو صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي المجموعة 3، وهو يستطيع أن يوصل رأساً حربياً شديد التفجر زنة ألف رطل إلى أهداف تبعد 1.500 ميل، بدقة كانت تعتبر من قبيل الخيال العلمي قبل عقد من الزمان. ومدى الدقة في المجموعة 3 سوف يسمح لنا أن نقتل العدو، وندمر منشآته، ومعداته، من دون تعريض عدد كبير من المدنيين للخطر، ويعتمد دليل الصاروخ على الملاحة بالقصور الذاتي المحوسبة ، ورادار يتتبع الأرض، والنظام العالمي لتحديد الموقع بإشارات الأقمار. وعندما أكد لي رماة البحرية لصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي أنهم يستطيعون إطلاق رأس حربي زنة نصف طن عبر مسار منخفض، وسريع، ومراوغ، يدخل الخيط في إبرة المضائق وممرات الجبال، وبعدئذ، من خلال نافذة مقاسها ثلاثة أقدام في أربعة أقدام على بعد أكثر من ألف ميل فوق الأفق، ليلاً أو نهاراً، عرفت عندها أن المسألة لم تكن استئساداً وتظاهراً: إنها الثقة التي جاءت مع هندسة القرن الحادي والعشرين.

سبق للولايات المتحدة أن استخدمت صواريخ توماهوك في البلقان، وفي العراق، وفي الرد على الهجمات الإرهابية. وكان السلاح مدمراً بشكل مؤثر، وهو فعال على نحو مساو في الحد من الإصابات في صفوف المدنيين.

وأضاف جين رينيوارت "إن البحرية تؤكد أننا نملك مائتي صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي في سلة الإطلاق في الساعة 0200 حسب التوقيت العالمي."

وقلت: "نعم- أحد الخيارات هو ضربة كبيرة من مجموعة صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. والخيار الثاني هو صورايخ توماهوك للهجوم الأرضي ابتداء، تقود إلى، أو تنطلق في الوقت نفسه، مع طلعات القوة العالمية."

كانت قدرة قاذفتنا ستيلث ب-2 تعرف باسم القوة العالمية، لأن تلك الطائرة المتسللة الضخمة ذات الأجنحة الخفاشية تستطيع حرفياً أن تدور حول الكرة الأرضية. وعندما تقلع من قاعدة وايتمان للقوات الجوية في سفوح تلال أوزارك في ميسوري، وتتزود بالوقود جواً عدة مرات، فإن طائرة ب-2 تكون قادرة على أن تطير لمهام قصف في أي مكان في العالم، وكانت رحلاتها الدائرية ذهاباً وإياباً تستغرق أحياناً أكثر من أربعين ساعة. والطائرات ب-2 غير مرئية في الرادار. وعندما تصل ليلاً فوق الهدف، تسقط ذخائر هجومية مباشرة مشتركة دقيقة، وهي قنبلة أو قنبلتان زنة الواحدة ألف رطل، موجهة بالنظام العالمي لتحديد الموقع، وتضرب النقطة المبرمجة للتصويب عليها بدقة تصل إلى مسافة لا تتجاوز بضعة أقدام بشكل ثابت.

وإحدى ميزات القوة العالمية هي المرونة: فضابط نظام السلاح على متن الطائرة يستطيع أن يحمِّل الإحداثيات الدقيقة للهدف على ذخائر الهجوم المباشر المشتركة باستخدام المعلومات الاستخبارية في الزمن الحقيقي طوال مسيره في الطريق إلى الهدف. فعلى سبيل المثال، إذا بثت مركبة جوية بدون طيار صوراً لقاذفات صواريخ معادية وهي تتحرك لتتهرب من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي القادمة باتجاهها، فإن بالإمكان تمرير المواقع الجديدة للهدف إلى الطائرة ب-2 وهي في طريقها، ويمكن برمجة ذخائر الهجوم المباشر المشتركة باستمرار حتى آخر دقائق قليلة لضرب قاذفات الصواريخ المعادية.

الخيار الثاني، بعدئذ، سوف يتضمن إطلاقاً كثيفاً للصواريخ توماهوك للهجوم

الأرضي، متبوعاً بمساندة القوة العالمية. ولكن أفغانستان بلد ضخم، جبلي، مثقب بالكهوف ومغطى بمجمعات موزعة من المنَعَات المصفحة المموهة. هناك الآلاف من حفر الجرذان، وعدد محدود فقط من ذخائر الهجوم المباشر المشتركة. وبعد هجمات 9/11، ليس من الممكن أن يكون الملا عمر أو أسامة بن لادن موجودين في مقريهما يسترخيان بانتظار القنابل لتهبط عليهما.

وأخبرت المديرين: "واحد من هذين الخيارين سيكون إعداداً جيداً للأحذية العسكرية(*) على الأرض. ولكنني أريد أكثر من الخيارات المعتادة المتوقعة، وهي المزج الذي يمكن التكهن به من الصواريخ والضربات الجوية. والسؤال هو أحذية من؟ وكم زوجاً منها؟" واستدرت نحو بات هيلي. "ماذا تستطيع الوكالة أن تعمل لنا؟ وما هي الحالة الحالية لتحالف الشمال والقوات الأخرى المناوئة لطالبان؟"

وتوقف بات، وهو المفكر دائماً، للحظة. "كما تعرف، لدينا أناس مع تحالف الشمال طوال سنوات. وتشير تقاريرهم إلى أن جند المعارضة لديهم الإمكانية لمواجهة طالبان وحلفائها من القاعدة... إذا استطاع التحالف أن يجمع نفسه معاً بعد اغتيال مسعود، وإذا تسلم مساندة كبيرة بالمعدات." وعدّد بات البنود على أصابعه: "ملابس شتوية، وأسلحة وذخائر، وأجهزة اتصال لاسلكي، وطعام، ودواء، وبطاطين...وتبن وشعير لخيلهم، وسروج للخيل، وربما بعض الطائرات العمودية."

وعلق جين رينيوارت، طيار الهجوم الأرضي القديم: "وسوف يحتاجون أيضاً إلى المساندة الجوية القريبة."

وأضاف رايفل: "وذلك يعني زمر قوات عمليات خاصة مع مراقبين جويين للقتال من القوات الجوية."

وأضفت: "لا بأس، لدينا خيار ثالث: قوات عمليات خاصة."

قوات عمليات خاصة تُسحب من فرقة النشاطات الخاصة في وكالة الاستخبارات المركزية ("القوات الأرضية" للوكالة)، والقبعات الخضر في الجيش،

(*) الجنود المنتشرون تحت القيادة العسكرية.

والقوات البحرية الخاصة للحرب البرماجية قد دُرِّبت لتعزيز أو لقيادة قوات حرب العصابات ضد أعداء تقليديين. ومن بين القدرات الحيوية الجديدة لقوات العمليات الخاصة وجود المراقبين الجويين للقتال من القوات الجوية، والمهرة مهارة عالية. وكان هؤلاء ضباط صف أشداء يستخدمون أجهزة اللاسلكي المتصلة بالأقمار، والأنظمة العالمية لتحديد الموقع، وأدلة ليزرية على الهدف للتحديد الدقيق لتشكيلات العدو، وتحصيناته، وعرباته، وإرسالها إلى طيران القصف أو إلى القاذفات الثقيلة لتسقط ذخائر هجوم مباشر مشتركة. قبل سنوات، سبق لي أن رأيت زمراً شبيهة ولكنها كانت أقل قدرة بكثير، وكانت تعمل مع وحدات مساعدة ميدانية للقوات الجوية. أما الآن، فإن الزمر، مثلها مثل العديد من تجديداتنا التقانية المتزايدة، كانت زمر "كاسبي الحرب."

ونحن سنطلب من رجال المهام الخاصة من مركز العمليات الخاصة المشتركة في فورت براغ أن يقوموا بمطاردة واستئصال قادة الإرهابيين و"نستغل" (البحث والتحليل) للمواقع التي يُشك بوجود أسلحة تدمير شامل فيها.

وكنا نعرف أن تحالف الشمال والمليشيات القبلية الأخرى تستطيع بعد أن تُقوّى بقوات العمليات الخاصة، وتسند بالقوة الجوية الأمريكية، أن تدمر طالبان والقاعدة المتفوقين من الناحية العددية. ولكن تحالف الشمال لم يحشد إلا ما مجموعه حوالي 20.000 مقاتل، مسلحين ومجهزين بمستوى "ضعيف" و "حسن" بحسب مقياس الفاعلية العسكرية. وأما الطالبان والقاعدة فكان لديهم من المقاتلين ضعف ذلك العدد على الأقل، إضافة إلى دبابات وناقلات جند مدرعة أكثر، ومدفعية أكثر، وأسلحة ورشاشات أكثر. ولم يكن هذا ما يسميه الإستراتيجيون "توازن قوى ملائم."

وحذر بات هيلي: "وتحالف الشمال بلا نظام، فمنذ اغتيال مسعود، كان يتوجب علينا أن نبدأ من البداية من جديد. لقد كان لدينا الكثير الذي استثمرناه في مسعود، حرفياً."

وقلت للأركان: "لا بأس، لقد ناقشنا ثلاثة خيارات. وإليكم خياراً رابعاً. شغلوا الخيارات الثلاثة الأولى في وقت واحد معاً، لتكون تمهيداً لنشر قوات مقاتلة أرضية أمريكية تقليدية. أولاً سنرى ماذا يستطيع تحالف الشمال، بمساعدتنا، أن يفعل. ثم نستخدم تشكيلات أكبر إذا كان علينا أن نفعل ذلك."

وأنصت الرجال الجالسون حول مكتبي باهتمام. إن اقتراحي تضمن إرسال كتائب وألوية من الجنود الأمريكيين وجنود البحرية إلى داخل بلد غير مضياف ومن أقسى بلاد العالم مناخاً، لشن حرب ضد عدو متعصب صعب المراس. إن الكثيرين من جند القاعدة والطالبان كانوا يقاتلون في تلك الأرض القاسية لعدة سنوات. وعدد كبير منهم خدموا بصفتهم مجاهدين في الصراع الطويل الدامي الذي أخرج الجيش السوفيتي في نهاية الأمر. وكان الدرس الواضح المستمد من التاريخ الحديث لأفغانستان هو ألا تضع أعداداً كبيرة من الجند الأمريكيين على الأرض لإنجاز المهمة، ما لم يكن ذلك ضرورياً ضرورة مطلقة.

أمران كانا مستيقنين: إن كل واحد من الخيارات الأربعة طرح تحديات في ترتيب التمرحل، وإقامة القواعد، وحق الطيران فوق البلاد الأجنبية، إضافة إلى الأرض المعقدة وقضايا الطقس. وسوف يتطلب كل منهما تقويماً استخباراتياً مفصلاً لمهارة العدو وتصميمه.

طوال سنوات كنت قد درست إستراتيجية الحروب الماضية وتعبئتها. وعندما كنت أنا وأركاني نستعرض خياراتنا في أيلول/سبتمبر 2001، لم أستطيع أن أفكر في موازٍ تاريخي للحملة العسكرية الموضوعة قيد الدراسة. لقد كانت العملية تمثل ثورة في قتال الحرب. فنحن سوف نقدم أحدث تقانة متقدمة عسكرية في العالم: صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، وذخائر الهجوم المباشر المشتركة، وقاذفات ستيلث، والدليل الليزري للهدف، والاتصالات بالأقمار، وكل ذلك على ميدان معركة هو من أكثر ميادين المعارك في العالم بدائية. إن تحالف الشمال، بمنتسبيه القبليين، وعدد قليل من الدبابات الروسية المتعطلة، وطائرات عمودية مخلعة للنقل،

وآلاف من الخيل، سوف ينقلون الأسلحة الثقيلة والذخائر على ظهور الحمير والجمال في رقصة متزامنة الإيقاع، تستغل كل تلك القوة النارية، والتقدم التقاني المعقد. وبلغت القوات التي ملكتها القاعدة والطالبان ضعف جند تحالف الشمال، وكانوا أفضل تجهيزاً من التحالف. ولكنني كنت واثقاً من أن توازن القوى يوشك أن يتغير.

نظرت إلى الساعة الرقمية الموجودة خلف طاولتي. لقد كان الوقت ظهراً تقريباً. وقلت لأركاني: "لا بأس، أيها الإخوة.هيا اخرجوا واذهبوا إلى العمل. لدينا تحديدات جدية على الزمن. أوه، نعم، بالمناسبة، لا أريد ذلك أن يؤثر على نوعية إنتاجكم."

ابتسمت، ثم نهضت ورجعت إلى طاولتي. وتقاطر الأركان خارجين. ولبضع دقائق قليلة بقيت وحيداً مع همهمة واهية من مكيف الهواء. ثم دخل جيف هينز مع كدس جديد من الرسائل. وصببت كوباً آخر من القهوة السوداء وبدأت بالقراءة.

بعد أيام قليلة، أدركت أني كنت في حاجة إلى الخروج من مكتبي، لأتحرك حول المبنى وأتحدث مع الناس. لم أكن أنوي أن أخضع المخططين للإدارة الدقيقة المفرطة في السيطرة والتفاصيل، ولكني كنت محتاجاً إلى الإحساس المباشر بالتقدم الذي كانوا يحرزونه وبالمشكلات التي كانوا يواجهونها.

وكانت إحدى مناطق النشاط الكثيف هي منشأة الاستخبارات الحساسة المقسمة، فهي متاهة من حجر كبيرة وصغيرة بلا نوافذ خلف باب فولاذي مقفل بالترميز، والتي تفتح على التعاقب على نقطة تفتيش مأهولة على مدار الساعة بحارس أمن مسلح. وتحت ضوء الفلوريسنت في المنشأة، كانت الطريقة الوحيدة لتعرف الليل والنهار، أو اليوم من الأسبوع، لتلك المسألة، هي أن تنظر إلى إحدى ساعات الجدار، التي كانت ترمش لتدل على الوقت في تامبا، والعراق، وباكستان، وأفغانستان. وأنا متأكد أنني لست الوحيد الذي سبق له أن عقد حاجبيه عندما علم أن أفغانستان كانت في توقيتها خارج التزامن مع بقية العالم، بثلاثين دقيقة وألفي عام.

في أثناء تلك الأسابيع الأولى من التخطيط للحرب، تباحثت عدة مرات في اليوم مع دونالد رامسفيلد ونائبه، بول وولفوويتز، عن طريق الهاتف المأمون أو المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو. وكانت إحدى ميزات المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو تتمثل في أننا كنا نتشاور ونتقاسم صور المعلومات الاستخباراتية ورسوم بيانات التخطيط الحساسة على أساس الزمن الحقيقي.

في صباح أحد الأيام في الغرفة الصغيرة للاجتماعات لدى مدير الاستخبارات في منشأة الاستخبارات الحساسة المقسمة كنت في مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو، أقدم إيجازاً للوزير عن الأهداف ذات القيمة العالية. وتكون هذه الإيجازات، عادة، مناسبة لطرح سلسلة من الأسئلة من جانب الوزير. ولكن رامسفيلد، في هذه المرة، أنصت من دون مقاطعة، ووجهه واضح التركيز.

وقال عندما أكملت الإيجاز: "لا بأس، أيها الجنرال. تقدم جيد. استمر بذلك." وكان هذا من دونالد رامسفيلد ثناء عالياً في الحقيقة. وانطفأت شاشة الفيديو إلى الأسود عندما انقطع الاتصال. وكانت ثقته المتنامية سارة. وعلى الرغم من أن إيجازاتنا التفصيلية سوف تستمر، فإن الوزير لم يكن يتنفس فوق كتفي.

في هذا الأسبوع الأول بعد 9/11، كانت البلاد مغضبة أسيئ إليها وقد عيل صبرها. وكان الناس يريدون من أمريكا أن ترد الضربة بشدة، وما كانوا يريدون الانتظار. وكان الدليل قد بدأ يبرز في القصص التي تظهر على الإنترنت. ومن بين الصور التي رأيتها في هذين الأسبوعين الأولين صورة سرب من طائرات بي-52 قلاع الطبقة الجوية العليا (ستراتوفورترس) مخلوطة رقمياً تحمل شعارات للخطوط الجوية الأمريكية والمتحدة على ذيلها، وتسقط سلاسل طويلة من القنابل فوق جبال صحراوية مكسوة بالثلوج.

وكان التعليق المكتوب تحت الصورة متلائماً مع مزاج الأمة: "خطوط الطيران المتحدة، والأمريكية تعلن خدمة جديدة دون توقف إلى أفغانستان."

"ها هي بيانات ضوء القمر، أيها الجنرال،" قال ذلك جيف كيمونز وهو يناولني سجلاً حاسوبياً مطبوعاً.

كنت أنا وجين رينيوارت ننظر في نور القمر من نهاية أيلول/ سبتمبر وطوال تشرين الأول. إن إدخال قوات عمليات خاصة بالطائرة العمودية يكون إنجازه أفضل ما يكون في الظلام، في ليال بلا قمر. فقد كان الطالبان والقاعدة يملكون مئات من المدافع المضادة للطائرات من الجيش السوفيتي السابق، فمدافعهم المضادة للطيران من صنع سوفيتي من عيار 23 ملم زد اس يو، المحمولة على شاحنات صغيرة أو المقطورة بشاحنة قديمة من نوع زيل، كانت سلاحاً فعالاً بنوع خاص. وآخر شيء كنا نريده هو أن يرتسم شبح إحدى طائراتنا العمودية على ضوء القمر وهي محملة بالجند، وتَجهَدُ على ارتفاعات عالية كي تعبر الممرات.

كان القمر سيصير بدراً كاملاً في يوم الثلاثاء، 2 تشرين الأول/أكتوبر. ولكن القمر سيتناقص إلى التربيع الأخير من الهلال بحلول 10 تشرين الأول/ أكتوبر. ولكن ذلك الهلال المتناقص، لن يشرق في ليلتي السبت والأحد من 6 و7 تشرين الأول، على أفغانستان الشمالية إلا بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس.

وقلت: "قد يكون لدينا نافذة جيدة هنا، يا جيف."

كانت غرفة الحرب في منشأة الاستخبارات الحساسة المقسمة مزدحمة بالضباط وبحفنة من الموظفين المدنيين. وكان يمكن لهذه المنشأة بطاولتها الواسعة من خشب البلوط وصفوف الكراسي البعيدة عن المركز، أن تكون غرفة اجتماعات في أي مكان في أمريكا الشركات الكبيرة، لولا إشارة فوق شاشة جهاز الإسقاط تقول: "كلمة ترميز الأسرار العليا." وفي هذا الصباح، مرة أخرى حتى الآن، كان الموضوع المتناول هو التقدم في حقوق إقامة القواعد. كان العميد البحري جي كامبل على المنصة، ويستخدم مؤشراً ليزريا على إسقاط خريطة مسرح أفغانستان.

وقال كامبل: "في غضون أسبوع، سوف يكون الباكستانيون على ما يحتمل قد التحقوا معنا في قواعد البحث والإنقاذ القتالي هذه." ولمعت النقطة الياقوتية من مؤشره الليزري عبر القواعد الجوية الصحراوية الجنوبية الغربية قرب دالبندي وكويتا، التي ستتمركز فيها وحدات البحث والإنقاذ القتالي. وستقوم هذه الوحدات بحماية الملاحين الجويين الذين يطيرون في مهام فوق أفغانستان الجنوبية. فإذا أجبر الطيارون على القفز في أي مكان جنوب وشرق الخط من كابل إلى قندهار، فسوف تنطلق وحدات البحث والإنقاذ القتالي من هذه القواعد لتخرجهم وتأتي بهم.

التمكن من الوصول إلى دالبندي وكويتا: ذلك كان تقدماً. فالعلاقة الشخصية التي كانت لي مع الرئيس مشرف، والتي مهدت الطريق للالتماسات المباشرة من البيت الأبيض ومن كولن باول، كانت تعطي ثمارها.

وقال كامبل: "ولكننا ما زلنا نبذل الجهد مع الستانات." فالجمهوريات السوفيتية السابقة الواقعة شمال أفغانستان لم توقع بعد. فهذه البلاد، بعد كل شيء كانت آسيا الوسطى، وفي آلاف من سنوات التاريخ هناك، لم تحدث قطعياً تجارة بسيطة بين عشية وضحاها. كانت المفاوضات تستغرق وقتاً، وعندئذ مرة أخرى، فإن أمريكا كانت تملك الكثير من الجزَر ومثلها تماماً الكثير من العصي، وكنت على ثقة إننا، في نهاية المطاف، سوف ننتصر.

ولكن، في نهاية المطاف، هذه كانت مشكلة. فنحن كنا نأمل في اتفاق سريع على حقوق إقامة القواعد في أوزبكستان وطاجيكستان، ولكن ذلك لم يكن صفقة ناجزة قطعاً، ومشرف ما يزال من الممكن أن يرفض الموافقة على السماح لنا بتمركز أعداد كبيرة من قوات العمليات الخاصة في أرضه، وخصوصاً في المناطق النائية بالقرب من أفغانستان حيث كانت الأصولية الإسلامية والمساندة لطالبان تجري فيها أعمق ما يكون. كنا نحتاج أن نرتب تمرحل قوات العمليات الخاصة، وبشكل خاص خيالة النخبة من وحدات المهام الخاصة من قيادة العمليات الخاصة المشتركة، وأن

تكون قريبة قرباً كافياً لضرب القاعدة في معقلها الجبلي في جنوب شرق أفغانستان. وكنا نحتاج لتمرحلهم في الحال.

عندما درست الخريطة على شاشة جهاز الإسقاط، تطورت خطة وأخذت شكلاً محدداً. فقد تكون أفغانستان قارية، ولكن الكثير من منشآت الطالبان والقاعدة تقع ضمن مدى قوة طائرات عمودية محمولة على سفينة تطير من البحر العربي الشمالي. إن الطائرات العمودية مخترقات العمل المباشر من نوع ام اتش-53 بيف لوز، و ام اتش-60 التابعة للفوج المائة والستين لطيران العمليات الخاصة كانت تحتاج إلى قاعدة واسعة نسبياً، مع حيز للطائرات العمودية الكبيرة المسلحة وصيانة كافية كذلك وتسهيلات للمعدات. ولم تكن حاملات الطائرات العمودية التابعة للبحرية، والتي تنتشر عليها وحدات الحملة العسكرية البحرية، كبيرة بشكل كاف للقوة التي تصورتها. كنت أحتاج إلى سطح فولاذي مثل ورق الزنبق المائي(*) الطافي، ليكون قاعدة عمليات متقدمة، على مبعدة مباشرة من ساحل باكستان، وكنت أحتاج إليها في الحال.

في أواسط التسعينيات من 1990، طورت البحرية القدرة على تحويل حاملات الطائرات في الأسطول إلى قواعد عمليات خاصة طافية. إن السفينة الأمريكية أمريكا قد حملت أكثر من 2000 من وحدات المهام الخاصة وطائراتها العمودية في أثناء العمليات العسكرية في هايتي في العام 1994. فإذا لم نستطع تأمين قواعد في باكستان، فسوف نحتاج إلى حاملة تعمل بصفة قاعدة طافية من أجل مهمة قواتنا للعمليات الخاصة في الجنوب. وذلك سيستغرق وقتاً.

وفي مكتبي، مددت يدي لأصل إلى المفتاح الأحمر وطلبت الأدميرال فيرنون كلارك، رئيس العمليات البحرية. "فيرن، سوف نحتاج إلى حاملة طائرات لتقوم بواجب غير عادي..."

(*) تعبير يعني مركزاً، أو معسكراً متقدماً، أو قاعدة أجنبية، أو منطقة تمرحل.

لاحقاً بعد أسبوعين، وبعد أن أبحرت نصف المسافة حول العالم بأقصى سرعة ممكنة للسفينة، ستكون السفينة الأمريكية كيتي هوك قد وصلت إلى بحر العرب الشمالي، جنوب مضيق هرمز بالضبط. سوف يكون لدينا "سطح الزنبق" في المكان المطلوب.

قلت عندما دخل العقيد هيز مكتبي: "يا مايكل، عندي لك عمل."

وقال مبتسماً: "لا أطمئن إلى ذلك، يا سيدي."

وشرحت: "إن الدولة تعتقد أننا وإلى حد كبير قد نضم إلينا قلة من الأصدقاء في هذه العملية، وأنا واثق أننا سنرى فعلاً شكلاً كبيراً من التحالف. وذلك يعني ممثلين متحالفين يقومون بالارتباط مع هذا المقر، هنا في ماكديل." وأشرت بيدي نحو النوافذ.

"سوف يتوجب علينا أن نضعهم في مكان ما."

وعرض مايكل: "... حيز للمكاتب، والإسكان، والسيارات، والمواقف."

"لقد حصلت لنفسك الآن على مهمة، يا عقيد هيز."

عندما بدأ مايكل في ذلك الأصيل من أيلول/سبتمبر، لم يكن أحد منا يدرك أننا في غضون ثلاثة أشهر سيكون لدينا "قرية تحالف" قرب خط الطيران في ماكديل، وأنها سوف تتكون في نهاية المطاف من ثمانٍ وستين قاطرة بسعة مفردة أو مزدوجة توفر الإسكان للضباط من اثنتين وخمسين أمة في ما كان الرئيس بوش قد سماه الحرب العالمية ضد الإرهاب. إن العمل الذي قام به مايكل هيز بنى التحالف، حرفياً. فبدون قدرته على تنظيم خطة والإبحار في متاهة لا تكاد تصدق من التمويل المحلي والدولي ما كانت القيادة المركزية لتعمل بمثل ما عملت.

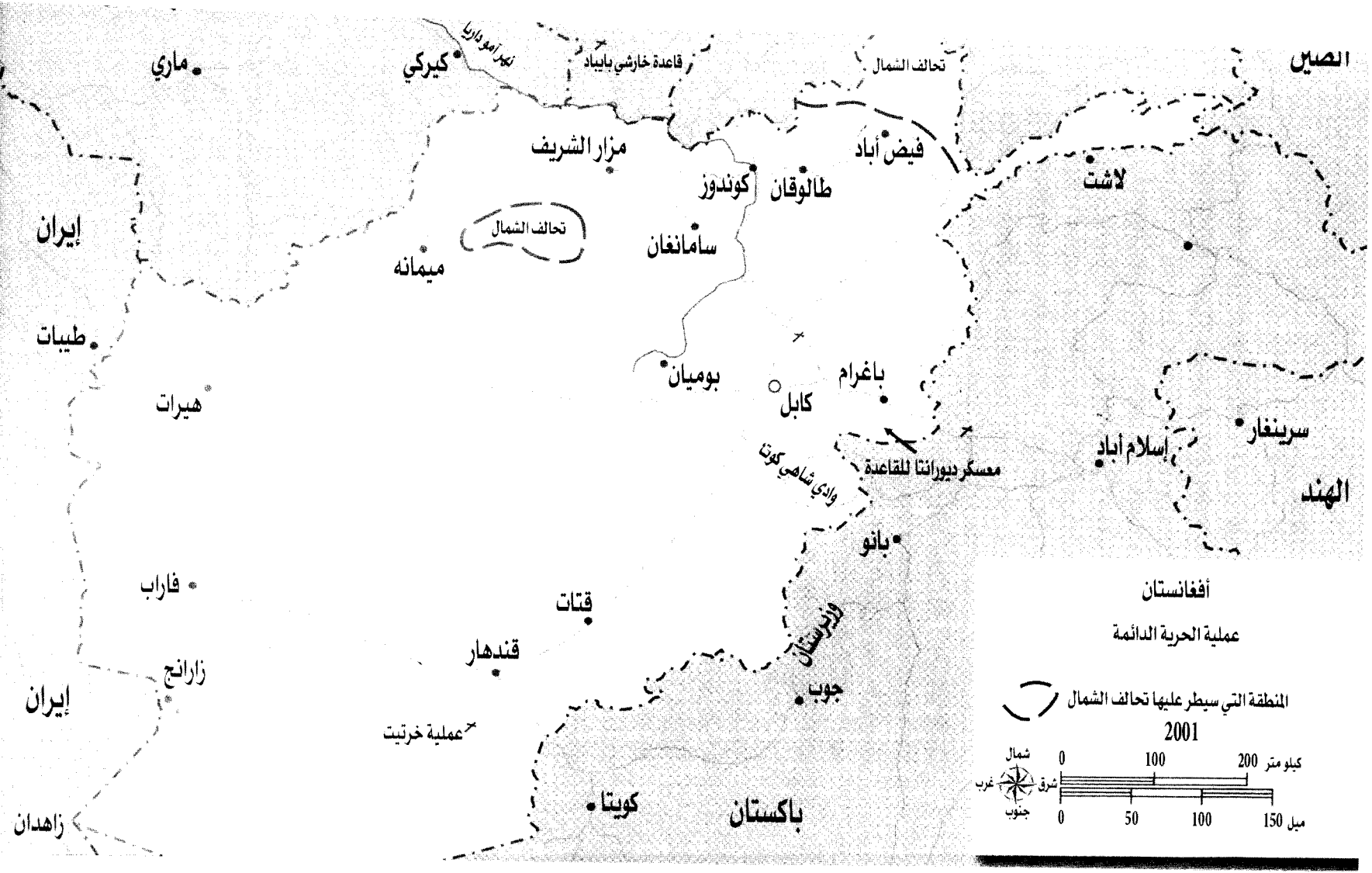
الصين
ماري
كيركي
نهر أمو داريا
قاعدة خارشي باييباد
تحالف الشمال
فيض أباد
مزار الشريف
طالوقان
كوندوز
لاشت
إيران
تحالف الشمال
سامانغان
ميمانه
طيبات
بوميان
باغرام
هيرات
كابل
سرينغار
إسلام أباد
معسكر ديورانتا للقاعدة
وادي شاهي كوت
الهند
بانو
فاراب
قتات
وزيرستان
قندهار
زارانج
جوب
إيران
عملية خرتيت
كويتا
باكستان
زاهدان
أفغانستان
عملية الحرية الدائمة
المنطقة التي سيطر عليها تحالف الشمال
2001
شمال
غرب
شرق
جنوب
0
100
200
كيلو متر
0
50
100
150
ميل

كان رامسفيلد قد قال في نهاية واحد من المؤتمرات المصورة بالفيديو: في أواخر أيلول/ سبتمبر: "بالمناسبة، يا جنرال، لا تنس شأن العراق."

وقلت: "لن أنسى، سيدي الوزير، لدينا ملاحون جويون يطيرون في طريق الخطر فوق العراق في كل يوم."

رامسفيلد وأنا أدركنا كلانا أننا كنا ما نزال نطير فوق منطقتي المراقبة الشمالية والجنوبية مثلما كنا نفعل منذ 1992، ويجري مع ذلك إطلاق النار على طيارينا في أثناء كل مهمة تقريباً. وفي كل صباح عندما كنت أدون التحديات على بطاقتي من قياس ثلاثة في خمسة، كنت أضع في رأس القائمة ابتداء "الذين يسقطون من رمي النار في أثناء الطيران فوق منطقة عملية المراقبة الجنوبية/ومنطقة عملية المراقبة الشمالية". حتى عندما كنت منشغلاً انشغالاً تاماً بأفغانستان، فإن العراق لم يغادر ذهني البتة. وعند نقطة معينة عرفت أن أمريكا سوف تغير أو تتخلى عن إستراتجيتها في الاحتواء، وهي الإستراتيجية التي لم تنجح في ضمان انصياع صدام حسين لعقوبات الأمم المتحدة. وفكرت أن التخطيط لذلك اليوم هو المسار الحكيم الوحيد للعمل.

وقد ازداد قلقي وتصاعد من العمل الإرهابي الذي تمثل بإرسال الجمرة الخبيثة في رسائل بريدية في ذلك الخريف. وهو، بالنسبة إلي، أمر استدعى إلى ذهني فوراً برنامج أسلحة العراق للتدمير الشامل. وحتى تاريخ متأخر في شهر كانون الثاني/يناير 1999، وبعد أن أُجبر مفتشو الأمم المتحدة على الخروج من العراق، كانت الأمم المتحدة تقدم تقارير تفيد بأن صدام يمكن أن يكون مالكاً لآلاف اللترات من الجمرة الخبيثة المحملة على أسلحة. كانت هذه فكرة لم تساعدني على النوم ليلاً.

في صباح يوم خميس من أيلول/سبتمبر 2001، كنت أنا وجين رينيوارت على متن سبار 06 ثانية، وطرنا إلى واشنطون. وحملنا عشر نسخ من إيجاز سري للغاية يلخص التصور الموضوع للعمليات العسكرية التي تهدف إلى تدمير القاعدة وطالبان في أفغانستان.

في الساعة 1.00 بعد الظهر من اليوم التالي، كنت سأعرض هذه التصورات للرئيس في البيت الأبيض.

وأحضر مرافق في رحلة القوات الجوية دلة من القهوة السوداء. في يوم من هذه الأيام كنت سأرجع إلى التقليل من الكافئين، ولكن ليس ذلك في هذا اليوم. وبعد أن أقلعت الطائرة وارتفعت دواليبها، نشرت أنا وجين لوحات الإيجاز على الطاولة أمامنا وراجعنا التصور العملياتي.

لقد قسمنا الحملة إلى أربع مراحل، الأولى منها بدأت من قبل وهي الآن في حركة وتقدم. المرحلة الأولى، ضع الشروط وابن القوات لتزود سلطات القيادة القومية بالخيارات العسكرية القابلة للتصديق، وتضمنت هذه المرحلة وضع العمل الأرضي اللازم للعملية، ومن جملته إكمال اتفاقات إقامة القواعد، وترتيب التمرحل مع جيران أفغانستان. وعلى هذه الجبهة، كان البيت الأبيض، ووزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات المركزية، والقيادة المركزية يحرزون تقدماً. وكنت واثقاً أن دول الستانات ستكون قريباً في المكان الصحيح. وكان الرئيس بوش قد أعلن أن أمم العالم ستكون إما معنا أو ضدنا في الحرب على الإرهاب، وبدا لي أن قادة آسيا الوسطى كانوا يقرؤون تلك الرسالة قراءة عالية وواضحة. لديهم الكثير ليربحوه من الالتحاق بالتحالف، والكثير ليخسروه إن لم يفعلوا. وكانت تجارة الخيل في حركة وتقدم عبر المنطقة كلها. إن إقامة القواعد وترتيب التمرحل كانت ستكلفنا المال، ولكن الاتفاقيات التي يتم التوصل إليها ستكون ذات قيمة تستحق الدولارات التي صرفت في سبيلها.

وعمل آخر من واجبات المرحلة الأولى كان يشتمل على إدخال زمر متقدمة من ضباط وكالة الاستخبارات المركزية، يستخدمون هواتف فضائية متصلة بالأقمار وأكياساً من فئة المائة دولار، إدخالهم إلى أفغانستان ليبدؤوا بدعم وتقوية تحالف الشمال المتصدع و"القبائل" الأخرى في معارضة ضد الطالبان. وهنا، أيضاً، نحن نقوم بخطوات واسعة. وسبق لضباط الوكالة أن أقاموا اتصالات مع أمراء الحرب

الرئيسيين. وكان الجنرالان محمد فهيم خان، الخليفة الطاجيكي لأحمد شاه مسعود المقتول، وعبد الرشيد دوستم، قائد المليشيات الأزبكية والمتمركز في منطقة أبعد إلى الغرب، كانا يعدان نقود الدعم المالي المبدئي، ويستعدان لقبول رجال مهام خاصة شبه عسكريين من وكالة الاستخبارات المركزية من فرقة النشاطات الخاصة في الوكالة.

وكان أصدقاء دوستم لزمن طويل، ومنافسوه، محمد عطا، ومحمد محقق، وهو شيعي مسلم من الهزار، يقفان في الاحتياط ليتسلموا ضباط ارتباطهم من الوكالة كذلك. وهؤلاء الضباط سوف يمهدون العمل الأرضي لزمر قواتنا الخاصة، التي سنرسلها فوراً تقريباً. وهذه الزمر معروفة طوال سنوات باسم "الزمر - أ" وهي وحدات من عشرين رجلاً في كل منها، وقد نزلت الآن تحت اسم المفرزة العملياتية ألفا، وهي تضم بعضاً من أعنف الجنود وأفضلهم تدريباً في القوات العسكرية الأمريكية.

وكانت وكالة الاستخبارات المركزية تعد لنقل كميات كبيرة من أسلحة الجيش السوفيتي السابق والذخائر، وهي المعدات النموذجية لجميع المحاربين الأفغان، من أكداس في أوروبا. في البداية سوف يتم الإسقاط الجوي لهذه المعدات باستخدام طائرات سي -130، وبعد ذلك بعد أن نكون قد ثبتنا قواعدنا في دول الستانات، سوف تنقل جواً إلى حلفائنا الجدد باستخدام الطائرات العمودية من نوع ام اتش-47 شينوك من الفوج المائة والستين لطيران العمليات الخاصة. وفي هذه الأثناء، يقوم طيارو وكالة الاستخبارات المركزية الذين يقودون طائرات عمودية من العصر السوفيتي السابق من نوع ام آي-17، بحمل أجهزة اللاسلكي، ومرشدات التوجيه والإنذار الملاحي الجوي، والإمدادات إلى شمال أفغانستان.

وكان استكمال الترتيبات اللازمة للمشاركة العسكرية النشيطة من أعضاء التحالف، وخصوصاً قوات عمليات خاصة عالية المهارة من الأوروبيين، والكنديين، والأستراليين، عنصراً آخر من المرحلة الأولى. لقد كنت متشجعاً جداً بالدور الذي

كان يؤديه أولئك الحلفاء. فشركاؤنا في حلف الناتو والأستراليون كانوا يتخذون خطوات عملية لإحضار جند ليقاتلوا في الأزمنة والأمكنة الدقيقة التي كنا نريدهم فيها.

والواجب الأخير في المرحلة الأولى تمثّل في إعداد المساعدة الإنسانية للأزمة التي لا مناص عنها والتي كنا نعرف أننا سنراها عندما يتشرد المدنيون بفعل القتال. وكانت القوات الجوية تدور في ممرات متعرجة لتسقط من الجو آلاف الأطنان من الإعاشة اليومية الإنسانية، وهي النسخة العسكرية من الوجبات الجاهزة للأكل. والشعير والعدس المطبوخ الذي أحضرناه قد لا يكون وفق أفضل طريقة لإعداد الطعام، ولكنني كنت واثقاً أن اللاجئين الجياع الذين نساعدهم لن يرفضوه.

المرحلة الثانية، أدر عمليات قتال أولية واستمر بوضع شروط من أجل العمليات اللاحقة، وهي ستبدأ عندما ستكون استعدادات المرحلة الأولى قد اكتملت. إن الحملة العسكرية على أفغانستان سوف تكون صفحة فريدة في التاريخ العسكري، وكانت المرونة عنصراً حاسماً للخطة. لقد عمل جين رينيوارت، وجيف كيمونز، وأركانهم عملاً شاقاً على الأهداف المخصصة لهذه المرحلة من العمليات. فصواريخ توماهوك، والطيران التعبوي، وقاذفات ستيلث بي -2، وقاذفات بي-52 سوف تزيل أهداف الطالبان والقاعدة الخاصة بالقيادة والسيطرة، ورادارات الإنذار المبكر، والأنظمة الكبيرة للدفاع الجوي، وبشكل رئيسي صواريخ اس ايه -3 السوفيتية الصنع.

وسوف تتسلل زمر القوات الخاصة إلى داخل أفغانستان عندما تتكشف الحملة الجوية، وتبدأ بتوفير المساندة الجوية لتحالف الشمال ولقوات المعارضة الأخرى. وحاملة الطائرات كيتي هوك المتمركزة في اليابان سوف تقيم مشغلاً يكون قاعدة عمليات أمامية عائمة لقوات العمليات الخاصة في المياه الدولية قبالة شاطئ باكستان.

بعد أن يكون التهديد المضاد للطيران قد انخفض، سوف تقوم النفاثات

بالإقلاع عن ظهر حاملات الطائرات الموجودة في بحر العرب وستطير فوق الصحارى الغربية من باكستان وتهاجم أهدافاً في أفغانستان. وسوف تقوم طائرات بي -2 من الولايات المتحدة، إضافة إلى طائرات بي -52 من الجزيرة البريطانية دييغو غارسيا في المحيط الهندي، بتوصيل حمولاتها الثقيلة من المعدات في أثناء أطول طلعة سبق أن طارها طيران مطلقاً. وسوف تستخدم طائرات بي-52 ذخائر الهجوم المباشر المشتركة، وهو ما يعطي كل طائرة القدرة على إسقاط خمسة وعشرين طناً من الذخيرة الموجهة توجيهاً دقيقاً في كل طلعة.

وعندما تكون العمليات الجوية قد تكشفت وتكون زمر قوات العمليات الخاصة قد انتشرت، فإن تحالف الشمال والقبائل المساعدة له، وعناصر من وكالة الاستخبارات المركزية أعيد تموينها وتجهيزها، سوف تنتقل إلى الهجوم. ونحن سنستغل التقانة وشجاعة الأفغان أنفسهم لتحرير بلادهم.

ولن تكون هذه الحملة مسألة ضرب بالصواريخ على أكواخ طينية. كنا ذاهبين إلى حرب، حرب تكون فيها الأحذية العسكرية على الأرض.

المرحلة الثالثة، أدر عمليات قتال حاسمة في أفغانستان، واستمر في بناء التحالف، وأدر عمليات باتساع منطقة المسؤولية، وسوف تنساب هذه المرحلة بثبات متقن من المرحلة الثانية. بعد أن يكون حلفاؤنا المحليون، المعززون بحوالي 200 من قوات العمليات الخاصة، قد هزموا العدو، فإننا سوف نحضر ونُدخل جند التحالف، ومن جملتهم جنود جيش وجنود مشاة بحرية أمريكيون، للبحث عن جيوب المقاومة واستئصالها. وقدرت أننا لن نحتاج إلى أكثر من عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً من جند القوات الأرضية الأمريكية لاستكمال هذه المرحلة.

واتفقنا، الوزير رامسفيلد وأنا، أن قوة الولايات المتحدة يجب أن تبقى صغيرة. لقد أردنا أن نتجنب نموذجاً سوفيتياً مربكاً للاحتلال بالفرق المدرعة. لم يعمل هذا النموذج مع السوفيت، ولن يعمل معنا. وستكون المرونة ورد الفعل السريع- بالاقتحام الليلي المحمول جواً، والمحمول بالطائرات العمودية، بوحدات صغيرة قاتلة، ولا يمكن

التنبؤ بها، مقرونة بدقة غير مسبوقة - ستكون هي الملامح البارزة لأول حرب لأمريكا في القرن الحادي والعشرين.

وكانت المرحلة الرابعة هي المرحلة الأخيرة: رسخ، قدرة شركاء التحالف على منع عودة الإرهاب إلى الظهور ووفر المساندة لجهود المساعدة الإنسانية. وسوف تتطور هذه المرحلة على مدة من ثلاث سنوات إلى خمس سنوات. وكنت على يقين أن وحدات الطالبان والقاعدة التي تبقى سوف تلجأ إلى قتال العصابات بعد أن تكون تشكيلاتهم الكبيرة قد دمرت. وهكذا فإن ترسيخ الاستقرار وإعادة البناء في أفغانستان، وهي البلد الذي لم يعرف شيئاً غير الحرب والحرمان طوال آلاف السنين، سوف يحتاجان إلى قوات عسكرية لمكافحة التمرد وللشؤون المدنية على حد سواء. وفي هذا الشأن، كنت سعيداً بأن حلفاءنا كانوا قد تعهدوا من قبل بتقديم مساندتهم. سيكون هذا التحالف القوي، وليس الولايات المتحدة فقط، هو الذي سيساعد أفغانستان المحررة أن تعود فتلتحق بأسرة الأمم.

وشعرت بصوت الفرقعة المألوفة في أذني عندما استجاب هيكل الضغط الجوي القديم في الطائرة لهبوطنا. وجمعت ملاحظاتي، وتطلعت بأمل إلى مناقشة العرض مع وزير الدفاع وإلى اجتماع البيت الأبيض.

في وزارة الدفاع في ذلك الأصيل، وصلت الأمور إلى الانشغال سريعاً. فأولاً كان علي أن أرد على مكالمات الشركاء في التحالف المتنامي والحلفاء المحتملين في منطقة المسؤولية. ثم سأقوم أنا وجين بالتصفية الدقيقة لمجموعات الأهداف مع وكالة الاستخبارات الدفاعية، ومع وكالة الاستخبارات المركزية. وكان علينا أن نتحرك مباشرة باستمرار لأن لدي اجتماعاً كان قد تحدد ميعاده مع وزير الدفاع.

وتحدثت مع الجنرال جان بير كيلشي، رئيس أركان القوات الفرنسية. وقال إن فرنسا تتابع "بقوة" الإسهامات التي ستقدمها للحملة التي تتطور، ومن جملة ذلك حاملة طائرات، ونقل جوي، وقاذفات مقاتلة تعبوية، وقوات عمليات خاصة. هناك أنباء سارة طيبة.

وساعد مؤتمر صغير مع مخططي الأركان المشتركة على توكيد ناحية المساعدة الإنسانية من العملية. طائرات سي-17 من القوات الجوية ستقوم بقطع المسافة الطويلة من قاعدة رامشتاين الجوية في ألمانيا، وستطير فوق تركمانستان، وأوزبكستان لتسقط مئات الآلاف من الإعاشة الإنسانية في أفغانستان. وسوف تبدأ عملية المساعدة الإنسانية في اليوم نفسه الذي تبدأ فيه الحملة الجوية، وإن إطلاق الجهود الحركية والجهود الإنسانية في وقت متزامن واحد بهذا الأسلوب كان من دون سابقة، ولكنه كان الطريقة المسؤولة الوحيدة لشن هذه الحملة العسكرية. وأي خطر ممكن من عملنا العسكري سوف تتم معادلته بالمنافع التي كنا نجلبها معنا للشعب الأفغاني.

وكان هناك المزيد من الأخبار السارة: فسلطان عمان قابوس أعطى إذنه للطائرات المسلحة من نوع ايه سي-130 سبكتر(الشبح) ولزمرة مساندة من قوات العمليات الخاصة أن تعمل من القاعدة الجوية في جزيرة مصيرة في بحر العرب الشمالي، وهي داخل المدى إلى أفغانستان إلى حد كبير.

واتصل من المملكة العربية السعودية الفريق من القوات الجوية تشوك وولد، وقائد عنصرنا الجوي. كان يريد أن يعزز مركز العملية الجوية المشتركة بحوالي مائة من الأفراد للحملة العسكرية القادمة، ولكنه كان يشك في أن السعوديين سيوافقون على الطلب إن هو ذهب إليهم رسمياً. وهو جرح آخر من بين الألف جرح. وقلت له: "امض قدماً وطيرهم وأدخلهم، يا تشوك، وبعد أن يكونوا على الأرض، سوف نطلب العفو. ذلك أسهل من طلب الإذن."

بعد ذلك طلبتُ وندي تشامبرلين، السفيرة الأمريكية لدى باكستان. فمع وصولها الحديث إلى المنصب، كانت قد بدأت من قبل تحقق تقدماً مع القيادة. فالرئيس مشرف، كما أخبرت، قد منح الإذن لطيران التحالف ليطير فوق باكستان. وفي هذا الإذن ضمناً ترخيص لصواريخ توماهوك للهجوم المباشر أن تقوم "بالرمي الطويل" من فوق باكستان وهو الذي ذكره جين رينيوات. ووافق مشرف كذلك على

قائمة تفصيلية من أربعة وسبعين نشاطاً لإقامة القواعد وترتيب التمرحل سوف تدار في باكستان، ابتداء من بحث وإنقاذ قتالي، إلى إعادة تزويد بالوقود وتشغيل مواقع نقل الاتصالات، إلى إنشاء نقطة إخلاء طبي قرب حدود أفغانستان. وفي المقابل، طلب مشرف بألا تتضمن خطة الحملة إشراك الحكومة الهندية أو القوات العسكرية الهندية، وخصوصاً في أي طريقة يمكن لها أن تضع القوات الهندية في الفضاء الجوي أو البحري الباكستاني. وطلب أيضاً من التحالف ألا "يعلن" الاشتراك الهندي السياسي، وهو الأمر الذي سيشعل الحساسيات في باكستان.

كانت الطلبات معقولة، وتستحق الجهد في مقابل جناح جنوبي آمن في أفغانستان. وطلبت من وندي أن تبلغ شكري الشخصي للرئيس مشرف، وأن تخبره بأني سأخفض إلى الحد الأدنى قابلية رؤية الاشتراك الهندي. "وأننا نعمل للحصول على إعفاء من تعديلات بريسلر،" وأخبرتها، وطلبت منها أن تبلغ الرسالة مباشرة. "أنا أعرف أن باكستان تحتاج إلى قطع غيار عسكرية وسوف أحاول أن أساعد."

"مشرف سوف يكون مسروراً، يا جنرال."

وقلت: "ونحن نعمل أيضاً في موضوع المساعدة الإنسانية والعون المالي لمساعدة باكستان على معالجة أي تدفق للاجئين." وأجابت وندي بأن مشرف كان قد عبر عن ثقته بقدرته على معالجة أوضاع اللاجئين القادمين، ولكنهم سيقبلون أي عون مالي شاكرين. "وطلب الرئيس مشرف أيضاً، أيها الجنرال، أن تزوره أنت بأسرع ما يمكن"

"يا وندي، أرجو أن تخبريه بأني سأفعل ذلك بأسرع ما أستطيع. وأخبريه أن يصقل لعبته في الغولف."

وقال جين: "نحن في حظ جيد متواصل، سيدي."

ولكن الحظ لا يدوم طويلاً. وقبل الغداء تماماً، قبل بضع دقائق من اجتماعي المبرمج مع وزير الدفاع، دقَّقت مع هوغ شيلتون.

"يا توم، لقد طلب رؤساء الخدمات أن تقوم أنت وضابط العمليات لديك بتقديم إيجاز لهم في الخزان(*)، أي، غرفة القيادة،.. مع الوزير. إنها الإجراءات الموحدة للعمليات قبل أن تأخذ الخطة عبر النهر إلى البيت البيض.

وقلت: "تباً لهذا!"

وبالحكم من لهجة تعبير هوغ، فإنه لم يكن مسروراً أيضاً. فأنا كنت مستعداً لعرض تصور أمام الوزير، وليس خطة عمليات رسمية لرؤساء الخدمات. كان هوغ شيلتون بحاجة إلى إبقاء الرؤساء معنا، فقد كنت أعرف ذلك. ولكن فطرتي أعلمتني أن تقديم الإيجاز لهم أمام الوزير سوف يكون "جسراً بعيداً جداً(**)." وكان من المحتمل أن يقوم الرؤساء" بالتصنع بمواقفهم": ويحتمل أن يصاب الوزير بالإحباط. واقترحت على هوغ أن نقدم الإيجاز مرتين، مرة للوزير رامسفيلد وأخرى لاحقة لرؤساء الخدمات.

"لا وقت لدينا، يا توم. فهذا الإيجاز سيكون فرصة جيدة لجميع اللاعبين الأساسين ليتعرف أحدهم بالآخر تعرفاً أفضل. ونستطيع أن نجعل الفرصة تعمل."

"لا بأس، يا هوغ، سنمنحها محاولة."

عندما مشيت أنا وجين على طول الحلقة-ئي إلى الخزان، غرفة القيادة، أجبرت نفسي على الاسترخاء. ربما سيكون هذا الإيجاز تمريناً بيروقراطياً من دون ألم.

قد يكون تمريناً، ولكنه لم يكن من دون ألم.

كانت غرفة القيادة مكاناً مزيناً، فطاولتها اللامعة المصنوعة من الخشب القاسي، والأثاث الموجود فيها أعلى بعدة درجات في الراتب مما يوجد في مكاتب

(*) غرفة مأمونة لعقد الاجتماعات بين رؤساء الخدمات وتعرف باسم الخزان.

(**) عنوان كتاب ثم فيلم، ويعود إلى محاولة الحلفاء الفاشلة في الحرب العالمية الثانية في إحداث خرق في خطوط الألمان عند مدينة آرنهيم، والكلمة مقتبسة من قول الجنرال براوننغ البريطاني إلى الجنرال مونتغمري قبل العملية (أعتقد أننا قد نكون ذاهبين إلى جسر بعيد جداً)، والمعركة واحدة من أكبر المقامرات العسكرية في التاريخ.

معظم الضباط الأركان في وزارة الدفاع. ومع ستائرها الذهبية وهي تغطي إطارات النوافذ الكاذبة المزخرفة والمغطاة بالخشب، كانت غرفة القيادة رسمياً تعرف باسم غرفة الذهب.

عندما وصلنا، كان الوزير رامسفيلد يقف عن رأس الطاولة، ويقرأ على طريقته قراءة سريعة في كدس الوثائق. وكان نائب وزير الدفاع بول وولفويتنر ورؤساء الخدمات يجلسون حول الطاولة: الأدميرال فيرن كلارك رئيس العمليات البحرية، رئيس أركان الجيش الجنرال إيريك شينسيكي، رئيس أركان القوات الجوية الجنرال مايك رايان، وخليفته الجنرال جون جمبر. وقائد سلاح مشاة البحرية الجنرال جيم جونز، جلس إلى جانب هوغ شيلتون وديك مايرز، نائب رئيس الجلسة. أخذت مقعدي، بينما وقف جين رينيوارت إلى جانب المنصة، وقام مساعدي، المقدم جيف هيز، بتوزيع صفحات الإيجاز.

وفكرت، إننا سنسترجع بالتأكيد كل ورقة من تلك الأوراق الخاصة بالإيجاز قبل أن نغادر. كانت وزارة الدفاع ذات سمعة سيئة متصلة بالتسريبات. وحذر الوزير رامسفيلد كل واحد من الجلوس في الغرفة أن هذا التصور كان مصنفاً سريا إلى أقصى درجة عالية من السرية يمكن أن تصلكم، أي أنه كان "حساساً" و"مقسماً" ولكنني سبق أن قدمت إيجازاً هنا من قبل، وشيء ما قال لي إن لدينا فرصة بمعدل خمسين لخمسين في أن نفتح جريدة نيويورك تايمز غداً صباحاً ونقرأ محضر هذا الاجتماع.

وصار من الواضح بسرعة، على كل حال، أن الأمن سيكون مشكلة واحدة فقط في غرفة القيادة في هذا الأصيل.

فبعد أن تفرس رؤساء الخدمات في الصفحات المكدسة، وبدأ جين رينيوارت يشرح المرحلة الأولى من تصور الحملة، طلب هوك شيلتون من رؤساء الخدمات إبداء "الآراء". لم يكن قد أدرك الإزعاج الذي سيخلفه السؤال البسيط.

وعرض الرؤساء واحداً تلو الآخر آراءهم بالتصور. وحاجج الجيش عن فاعلية القوة الأرضية، ووصف الصعوبات الموجودة في إدامة قوات الجيش. واقترح رأي البحرية "من البحر" بوصفه أفعل مدخل لقتال الحرب، حتى في بلاد محوطة بالأرض من كل الجهات. وعرضت القوة الجوية من رئيس القوات الجوية بوصفها أقوى الأسلحة المساهمة في الحملة. وطبعاً، لم يدخل أي واحد من الآراء دخولاً كاملاً مع شبكة التصور العملياتي للقيادة المركزية، أو مع رأيي عن الحرب المشتركة.

واحتملنا نصف ساعة من هذا الحوار الدائر بلا هدف، هذا الهدر للوقت الذي لا يستطيع الوزير ولا أستطيع أنا أن نوفره. كان المقصود من الإيجاز أن نوفر معلومات عن الحملة التي طورتها القيادة المركزية بعناية ودأبٍ مضنٍ، مع مدخلات جيشنا، وبحريتنا ومشاة بحريتنا، وسلاحنا الجوي، وقادة عناصر العمليات الخاصة- جنرالات بثلاث نجوم،رتبة فريق ثان، سماهم رؤساء الخدمة هؤلاء أنفسهم. ليس لدي أي تسامح لهذا السخف الضيق الأفق. وكان رامسفيلد قد بدأ ينزعج بشكل واضح. وكنت أستطيع أن أرى تعابيره بأن هذا لم يكن هو ما توقعه.

وكان الرؤساء، أيضاً، قد لاحظوا بالتأكيد، وبعد بعض الوقت بدؤوا يوجهون نظراتهم، وتحذيراتهم، نحوي. "لا تأخذ هذا إساءة، يا توم... هو لمجرد أن نلعب دور محامي الشيطان..." وعلى ذلك الحال استمرت.

وحرث جين رينيوارت قدماً، حتى صار رأسه الأصلع أحمر.

وأخيراً قال رامسفيلد: "ذلك ليس معيناً على وجه الخصوص، يا جنرال." قال ذلك وهو يحدق ببرود نحو الرئيس المسيء.

ومع ذلك، فقد استمروا. ونظر رامسفيلد إلى ساعته بشكل حاد.

لقد تلقيت ما يكفي. وقلت وأنا أقف لأجمع بشكل كاسح لوحات الإيجاز الموجودة أمامي على سطح الطاولة المصقول: انظروا، لدينا الكثير من العمل لننجزه. سيدي الوزير، سوف أجمع هذا التصور معاً هذا المساء وأقدمه لك غداً صباحاً.

كانت الغرفة صامتة.

وقال رامسفيلد: "لقد انتهينا بالنسبة إلى اليوم"

قبل أن أقابل وزير الدفاع في الصباح التالي، طلب قائد سلاح مشاة البحرية الجنرال جون جونز أن يتكلم معي في مكتبه. وعندما وصلت وجدت جيم ورئيس عمليات الأسطول الأدميرال فيرن كلارك جالساً إلى جانب طاولة جونز.

قال كلارك: "يا توم، نحن فعلاً نساندك."

وأضاف جونز: "لا شيء مما قلناه بالأمس كان يقصد منه النقد. يا توم."

وبدأت: "عظيم أريد مدخلاتكم."

فاسترخيا

"ولكني أريد سماع نصيحتكم بوصفكم رؤساء الأركان المشتركة، لا بصفتكم رؤساء خدمات أفراداً تنبشون للحصول على أكبر قطعة من الكعكة في هذه العملية." ولم أعطهم وقتاً للرد. "انظروا، أنتم أيها الرجال، كل واحد منكم لديه جنرال بثلاث نجوم يقود عنصر خدمة لي، وهو يمثل خبرة الخدمة التي نحتاج إليها لنضع معاً خطة مشتركة. من الأفضل أن تسمحوا لأولئك الرجال أن يعرفوا أفكاركم. وبعدئذ ثقوا بهم ليعملوا من أجلنا جميعاً لبناء مدخل متماسك بدلاً من عمل مرقع لمصالح خدمة بعينها".

فهم كلارك وجونز تعليلي. وكنت أريد أن أثبت هذه المشكلة والآن. وقلت لهم: "إذا كنتم لا تثقون بحملة النجوم الثلاث هؤلاء لتمثيلكم ومساعدتي في قتال الحرب المشتركة فيجب عليكم أن تستبدلوهم."

وأومؤوا برؤوسهم ثانية. ولكني لم أنته.

وقلت: "بالأمس في غرفة القيادة، أيها الرجال، أعطيتم الانطباع كأنكم تكملة عدد بموجب القانون العاشر من... أمهم المحتقرين، لا مثل رؤساء أركان مشتركة. شكراً لاستماعكم لي إلى النهاية." ثم استدرت وغادرت.

عرفت أنهم تبلغوا رسالتي: لا توجد عملية مرضية إرضاء تاماً لأي خدمة واحدة وتكون عملية مشتركة بشكل حقيقي.

بعد عشر دقائق لاحقاً قال لي دونالد رامسفيلد في مكتبه: "يا جنرال فرانكس، هل لك من فضلك أن تشرح عن أي شيء كان ذلك بالأمس؟"

كنت قد هدأت، ولكني ما زلت مستاء من هجوم القرش البيروقراطي الذي حدث في غرفة القيادة. وبدأت أتحدث، وأنا أحافظ على صوتي على وتيرة منتظمة: "سيدي الوزير، أنا أعرف أنك تقدر أن وحدة القيادة مبدأ عسكري جوهري."

وثبتني رامسفيلد في نظرته الزرقاء المفكرة.

"لقد طورنا تصور الحملة هذا بناء على أوامرك، يا سيدي الوزير. لقد أعلمتني أن الرئيس يريد عملية كاملة لتدمير القاعدة في أفغانستان ولإزاحة طالبان من السلطة."

"ذلك صحيح، يا جنرال."

وفكرت لحظة قبل أن أستمر. لقد كنت القائد الأقدم عند بداية الحرب. وكان علي أن أقوي خطوط السلطة. "أنا أعمل لك وللرئيس، وليس لرؤساء الخدمات. لقد كانوا بالأمس يقاتلون من أجل مجال نفوذ لهم. فإذا استمر هذا، فإن جندنا، وبلادنا، سوف تعاني منه. يجب علينا ألا نسمح لضيقي الأفق من حملة أربع نجوم، رتبة فريق أول، بأن يقدموا حصتهم من الميزانية على حساب المهمة."

وبقيت صامتاً. وكذلك صَمَتَ الوزير. ومرت لحظة.

وقلت: "سيدي الوزير، يجب علي أن أعرف قبل أن نأخذ هذا الإيجاز إلى البيت الأبيض أن وحدة القيادة هي التي تسود. سوف أتبع كل أمر قانوني تصدره لي أنت والرئيس. ولكن يجب أن تكون لي سلطة القيادة لتنفيذ هذه الأوامر."

وفكر رامسفيلد قبل أن يجيب. "أنت تملك تلك السلطة، أيها الجنرال. أنت القائد."

"شكراً لك، سيدي الوزير."

وعرفنا الآن أنا ودونالد رامسفيلد أحدنا الآخر معرفة أفضل بقليل.

في وقت مبكر من بعد الظهر. التحقت بهوغ شيلتون، وديك مايرز، واللواء ديل ديلي، قائد التصور العملياتي المشترك بين الخدمات، لنذهب في السيارة إلى البيت الأبيض. ثم لحق بنا الوزير رامسفيلد بعد بضع دقائق في سيارة من نوع لينكولن نافيغيتر.

استقبلنا الرئيس بوش في غرفة مكتبة مريحة تقع في الطابق الثاني من جناح السكن. ووصل نائب الرئيس ديك تشيني في الوقت الذي وصلنا فيه. ولاحظت فوراً أن وزير الخارجية كولن باول ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس لم يكونا حاضرين. لقد شدد رامسفيلد على الحاجة إلى السرية، وكانت المجموعة الموجودة في غرفة الاستقبال هذه هي أصغر "تقسيم" ممكن.

كان يوماً حاراً، وقد لاحظ الرئيس أننا كنا نبدو مستشعرين للحرارة في بزاتنا العسكرية فئة أ. وقال الرئيس لنادل في البيت الأبيض: "ربما يود هؤلاء الناس كوكا." فأحضر النادل صينية من الثلج، والعديد من زجاجات كوكا الحمية، وكؤوساً بللورية تحمل ختم الرئاسة ثم غادرنا، وأغلق الباب خلفه.

وبدا لي الرئيس مسترخياً ومفكراً وهو يصب كوكا لكل واحد منا.

وقال وهو يشعل سيجاراً: "يا تومي، تعال إلى هنا واجلس." قال ذلك وهو يشير إلى كرسي بجانبه.

وقال الرئيس لرامسفيلد: "حسناً يا دون، ماذا لدى تومي ليقدمه لنا اليوم؟"

"لقد أعد الجنرال تصوراً عملياتياً لأفغانستان، سيدي الرئيس."

ونظر الوزير إلي وأومأ وقال: "ابدأ، أيها الجنرال."

وزعت لوحات الإيجاز. وبدأت: سيدي الرئيس، سوف تنفذ العملية في أربع مراحل. والمرحلة الأولى قد بدأت من قبل الآن.

كان الرئيس بوش يقرأ مقدماً، وبدأ على الفور تقريباً يطرح الأسئلة. "كيف التقدم في تأمين مساندة الأمم المضيفة؟ هل نحصل على القواعد التي نحتاج إليها؟"

وشرحت أن الرئيس مشرف قد وافق فعلياً على كل طلب من طلباتنا المتصلة بالطيران فوق بلاده، وإنشاء القواعد، وترتيب التمرحل.

وقال الرئيس: "ذلك جيد."

وأضفت أن السلطان قابوس منح الإذن لنا بتمركز الطائرات المسلحة من نوع ايه سي-130 وقوات قوة العمليات الخاصة في جزيرة مصيرة. وكنت على وشك شرح الأهمية التي يتمتع بها ذلك الموقع عندما تكلم الرئيس: وكم من أفغانستان يضع هذا ضمن مدى طيراننا؟

وكنت أعرف أن الرئيس بوش، قد طار بنفسه في مقاتلات. فهو بذلك يفهم نقاط القوة والتحديدات المتصلة بالقوة الجوية.

قلت: "سيكون لنا الكثير من المدى العملياتي، سيدي الرئيس. وسوف نؤسس، زيادة على ذلك، مسارات إعادة تزويد بالوقود جوياً داخل أفغانستان بعد أن يبدأ القتال."

وعندما كنت أنتقل من صفحة إلى صفحة في الإيجاز، كان الرئيس يقرأ بإمعان، وهو ينفث سيجاره بتركيز. وفي كل صفحة فعلاً، طرح سؤالاً ذا علاقة بها. كان الإيجاز مبرمجاً ليدوم ساعتين، وهي مدة من الوقت ذات قيمة كبيرة عند الأخذ بالاعتبار التزامات الرئيس في أثناء مدة الأزمة هذه. وأدركت أننا كنا سنجري طويلاً، ولكني شعرت بأن من واجبي أن أجيب عن أسئلته بأكمل ما يمكن من الإجابة.

بعد حوالي التغيير السادس، دقق دون رامسفيلد في ساعته بشكل واضح. "عليك أن تسرع، أيها الجنرال."

ونظر الرئيس وقد رفع بصره إلى أعلى من صفحة تبين مواقع رادارات الإنذار المبكر الخاصة بطالبان. "نحن على ما يرام، يا دون، هذه معلومات مهمة."

وقال رامسفيلد: "استمر يا جنرال، لكن تقدم بأسرع ما تستطيع."

وانتقلت من لوحة إيجاز إلى التي تليها. وسأل الرئيس سؤاله، وأنصت الوزير رامسفيلد بانتباه، مشاركاً في المحادثة في عدد من المناسبات للتشديد على نقاط حيوية رئيسية.

ضرب الرئيس الأوراق ليعود فيفتح على مجموعات الأهداف، ونظر إلى الأعلى. "نحن ذاهبون إلى أفغانستان لتدمير الطالبان والقاعدة. هذا ليس ثأراً. نحن في حرب ضد الإرهاب، وليس ضد الشعب الأفغاني."

في مساري الوظيفي طوال ستة وثلاثين عاماً، سبق لي أن رأيت أمثلة للقيادة الواثقة. ولكن هذا البيان للسياسة كان واحداً من أكثر البيانات مباشرة وحسماً مما سبق لي أن سمعته.

بعد ذلك عرض اللواء ديل ديلي، خلاصة لأهداف وحدة المهمة الخاصة في أفغانستان. وكنا نركز فيها على مصنع مخصبات من عصر السوفيت كان موضع الارتياب قرب مزار شريف. كان المصنع محاطاً بمراكز الحراسة، وكانت هناك نقاط تفتيش في الطرقات المؤدية إليه والخارجة منه. وقد أظهرت تقارير الاستخبارات الدؤوبة أعضاء من القاعدة يسافرون إلى المصنع ومنه. فإذا كان الإرهابيون يعملون على صنع أسلحة كيماوية أو حيوية فقد كان ذلك هو الموقع المنطقي.

وعندما كان ديل ديلي ينهي إيجازه، تكلم الوزير رامسفيلد: "سيدي الرئيس، ستكون هذه الحملة غير مسبوقة. وسوف تختلط الكثير من الخطوط التقليدية. وأوصي أن تعطى السيطرة العملياتية على وكالة الاستخبارات المركزية لوزارة الدفاع."

وكنت أنا ورامسفيلد قد ناقشنا هذا الموضوع. لقد كان جوهرياً أن أملك أنا،

بوصفي القائد، السيطرة على كل القوات الموجودة في المسرح، وكنت أعرف أن الوزير كان يرغب في منحي تلك السلطة. فبعد الفشل المزري بالأمس في غرفة القيادة، كان واضحاً أننا كنا نحتاج إلى "زر بارز وحيد" لنضغطه عندما يبدأ إطلاق النار.

فأجاب نائب الرئيس ديك تشني على رامسفيلد: "قبل أن تبدأ هذه العملية سوف نستعرض كل علاقات القيادة."

وهذا كان جيداً بما فيه الكفاية لي.

وسأل الرئيس: "أي شيء آخر، يا تومي؟"

"أعتقد أن من الجوهري أن نبدأ عملية المساعدة الإنسانية بالتزامن مع الحركات، سيدي. نريد أن يعرف الشعب الأفغاني أننا لا نهاجمه، ولكن حربنا هي مع القاعدة والطالبان."

وتبسم الرئيس: "ذلك ما كنت أتوقعه من شاب من ميدلاند."

وضحكنا.

وقال الرئيس: "بكل جدية. ذلك بالضبط ما نريد أن نفعله."

وفي نهاية الإيجاز، كدس الرئيس لوحاته ودرس خلاصة الحملة للحظة. "متى تستطيع أن تنفذ هذه الخطة، يا تومي؟"

"سوف تكون القوات الجوية في الموقع في غضون خمسة أيام، يا سيدي. ولكن جميع زمرنا في البحث والإنقاذ القتالي ليست بعد في مواقع تمرحلها ومع ذلك، فنحن نستطيع أن نخطط حول ذلك باستخدام صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، وقاذفات بي-2 في الشمال. وسوف أحتاج إلى إنذار متقدم قبل مدة ثمان وأربعين ساعة قبل بدء الحركات."

وقال الرئيس: "لا بأس، ولكن ما هو توقيتك المثالي، يا تومي؟"

وأنصت كل من في الغرفة باهتمام بالغ، ومنهم دونالد رامسفيلد. كنت أعرف

الضغط السياسي الواقع على الرئيس ليظهر العزم الأمريكي ضد القاعدة من خلال العمل العسكري. فالأرض الصفر في نيويورك، والإسفين الكبير في وزارة الدفاع عبر نهر بوتوماك،كانت كلها في خراب.

وقلت: "سيدي الرئيس، في حوالي أسبوعين، سننال المساندة اللازمة من الدول الموجودة في المنطقة. وأعتقد أن هذا سيعطي كولن باول ووزارة الخارجية الوقت اللازم لإنهاء المسائل المتصلة بترتيب التمرحل لزمر البحث والإنقاذ القتالي وقوات العمليات الخاصة في أوزبكستان.

وفكر الرئيس في ذلك. "أنا أتفهم... أسبوعان."

وقلت: "سيدي، نستطيع أن نبدأ العمليات الجوية في وقت مبكر. ولكن على مدى التحرك الطويل، لن يكون ذلك هو الخطة الأفضل. نحن نريد أن تكون العمليات الجوية وعمليات القوات الخاصة متزامنة إلى أقرب ما يمكن لنا أن نزامنها."

قال الرئيس: "أنا أتفهم، العملية الجوية الضخمة ستشكل تصريحاً." وتوقف الرئيس مرة أخرى ليفكر. "ومن ناحية أخرى، فأنا مستعد للانتظار. عندما نعمل هذا فسوف نعمله على الوجه الصحيح. رسالتي إلى الشعب الأمريكي أن يكون صبوراً."

وعندما نهضنا لنغادر، تكلم الرئيس ثانية. "السرية المطلقة هي المفتاح هنا."

وكانت هناك دورة من "نعم، سيدي الرئيس". و"أفهم، سيدي."

أما ديل ديلي رجل المهام الخاصة الأصيل فلم يقل شيئاً.

وقال له الرئيس: "أيها الجنرال، أخبر جماعتك بألا تتكلم."

ونظر ديل بهدوء إلى وجه الرئيس. "سيدي، جماعتي لا يتكلمون مطلقاً."

عندما كنت أقود سيارتي عائداً إلى وزارة الدفاع، تذكرت قصيدة كنت قد كتبتها في أثناء أزمة قومية أخرى، في تشرين الثاني/نوفمبر 1979، عندما أخذ

المتطرفون موظفي السفارة الأمريكية في طهران رهائن، وكانت قدرة الأمة على الثبات موضع الامتحان. لقد حملت في محفظتي نسخة متجعدة منذ ذلك الوقت. وعندما عبرت السيارة، من نوع سيدان، الجسر التذكاري نحو فيرجينيا، قرأت القصيدة ثانية.

العزم

الإرادة المبددة في وقت أسبق

أُعيد سبكُها ـ

فإن تُصلَّد في سائل حار

في حمام من الأزمنة الخوّارة

فالضمير في غير موضعه الحق

سيكون المعدن مترابطاً بشدة

أملس، ينبض بالعرق ـ

قِسّهُ، زِنهُ، قف في

رعب ـ لا تجربه.

الفصل الثامن

نصر تاريخي

مقر القيادة المركزية

7 تشرين الأول/أكتوبر، 2001

كانت غرفة الاجتماعات الصغيرة لضابط ركن الاستخبارات في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة باردة برودة غير مريحة بسبب تكييف الهواء اللازم لتبريد البنوك الإليكترونية. كانت الساعة 0900 في صباح يوم الأحد، 7 تشرين الأول 2001، مضى أقل من شهر منذ 9/11. ستبدأ الحرب في غضون ثلاث ساعات ونصف.

كنت في المقر منذ ما قبل منتصف الليل، أستعرض تدقيقاتنا النهائية لمعلومات الاستخبارات عن الأهداف، والطقس، وحالة الطائرات بي-2، التي كانت قد بدأت من قبل الآن في طيرانها طوال خمس عشرة ساعة من ميسوري. وقريباً من الفجر بدأتُ مكالماتي، لأعلم أهم الأشخاص المتعاونين معنا في المنطقة بأن الأعمال الحربية كانت وشيكة البدء. وكان جورج تينت ينبه محطات وكالة الاستخبارات المركزية في كل أنحاء العالم عن الانطلاق الوشيك للحركات الهجومية.

في الساعة 0820، كانت آخر مكالمة لي مع الملك عبد الله ملك الأردن: "سوف تبدأ في الحال، يا سيدي."

وقال الملك: "كان الله مع قواتك، أيها الجنرال. إنكم تقاتلون معركة عادلة."

لقد ارتفع مستوى التهديد كُونْ ج في منطقة المسؤولية إلى مستوى التهديد دلتا د قبل قليل. وأظهر القمر الخاص بالطقس لدى وزارة الدفاع مساء صافياً فوق أفغانستان، مع بعض هبات الغبار في الصحراء الغربية بالقرب من حدود إيران. وكانت الرؤية ممتازة في كل من كابول وقندهار معاً. وقائمتي المخصصة للتدقيق قد أكملت تدقيقها تقريباً.

وعندما راقبت، ومضت شاشة جهاز الإسقاط المظلمة لتخرج صورة الجنرال، الفريق في القوات الجوية، تشوك وولد وهو في مركز العمليات الجوية المشتركة في قاعدة الأمير سلطان الجوية في المملكة العربية السعودية. أما قادة العناصر الأخرى في القيادة المركزية فكانوا ينتظرون في الحلقة في البحرين، والكويت، وفي جزيرة مصيرة في مياه عمان. وكان الوزير رامسفيلد والرئيس الجديد لهيئة الأركان المشتركة، ديك مايرز يراقبان من مركز عمليات وزارة الدفاع، ولكنهما لن يشاركا مباشرة. ديك صار رئيساً لهيئة الأركان المشتركة قبل أسبوع فقط. ولكنه كان نائب رئيس هيئة الأركان الأسبق، وبهذه الصفة فهو يمتلك الصفات الكاملة للتحرك حسب المستوى المطلوب.

ظهر الضوء الأحمر على آلة التصوير التي كنت أواجهها. وقلت "صباح الخير من تامبا، وأصيل سعيد، ومساء الخير، حسب ما تنطبق الحال." ونظرت إلى ملاحظاتي. "لدينا قوة من أربعين ألف رجل وامرأة يشتركون في هذه العملية. وهناك ثلاثمائة وثلاث وتسعون طائرة، واثنتان وثلاثون سفينة. وتشترك فيها إحدى وثلاثون أمة في المجموع العام. لقد تسلمتم جميعكم قواعد الاشتباك. والقيادة والسيطرة في موضعها الأصلي. أنا أمتلك أمر التنفيذ من الوزير. سأذهب بعيداً، وأسألكم لتؤكدوا حالة جاهزيتكم. تشوك، أنت الأول."

وقال تشوك وولد قائد العنصر الجوي: "مساء الخير، أيها الجنرال. أنا أمتلك أمر التنفيذ. البحث والإنقاذ القتالي في المكان الصحيح. طائرات بي-2 في طريقها إلى أهدافها. القيادة والسيطرة خضراء. وليس هناك أي معوقات سيدي."

"أي أسئلة، يا تشوك؟"

"لا يوجد، سيدي."

وقام ضابط الاتصال في الهيئة والجالس إلى يساري بممارسة سحره فظهر اللواء البحري ويللي مور، قائد عنصر البحرية في مقره في المنامة، في البحرين. وقال وهو يبتسم: "أيها الجنرال، آمل أنك ستقول إني أبدو في شكل أفضل.

أنا أمتلك أمر التنفيذ. القيادة والسيطرة جاهزة. ليس لدينا أي قضايا. نحن في حالة تقدم..." وتبسمت لنكتة ويللي، ولكني أعجبت باحترافيته إعجاباً أكبر حتى من ذي قبل.

وتحركت الدورة إلى اللواء ديل ديلي قائد قوة المهام سورد (سيف). وكان الرجال، في وحدة المهام الخاصة تحت قيادة ديل، قد أُعدوا لينتشروا مع كيتي هوك عندما تقترب هذه الحاملة من عمان في يوم الأربعاء. وسوف تتمركز هذه القوة النخبوية في شمال بحر العرب في غضون سبعة أيام مكملة التجارب النهائية لعملياتها.

قال ديل: "لا توجد أي قضايا."

وأخيراً ظهر في حلقة الشبكة مدير الاستخبارات العامة، جورج تينت، من لانغلي. "لا توجد قضايا، أيها الجنرال."

قابلت آلة التصوير. "حسناً. أنا راض. الحركات تبدأ في الساعة 1230 بتوقيت الساحل الشرقي، وفي الساعة 1630 بتوقيت زولو(*)، وفي الساعة 2100 بتوقيت أفغانستان. أي أسئلة؟" ليس هناك أي أسئلة. "جيد. نقطتي الأخيرة هي هذه: استخدموا حصافتكم الراشدة. هذه هي بداية تاريخ الغد. أريدكم أن تركزوا على أمرين: أنجزوا المهمة، واحموا القوة."

وحالما وصلت عائداً إلى مكتبي، تلقيت مكالمة على الهاتف اس تي يو-111 من الجنرال ديك مايرز والوزير رامسفيلد.

قال ديك: "عمل عظيم، نحن هنا لنساندك"

وأضاف دونالد رامسفيلد: "أيها الجنرال، لقد طلب الرئيس أن أبلغك احترامه وأطيب تمنياته. إننا سننهي ما بدأ في 11 سبتمبر."

وقلت: "بارك الله بك، أيها الوزير." وكان وزير الدفاع على وشك أن يصير وزير الحرب. "بارك الله في أمريكا."

(*) اسم آخر لتوقيت غرينتش.

وترددت أصداء كلمات الشعار غير الرسمي لبلادي، وأحسست بمعناها العميق. لقد كان هناك إعادة ولادة للوطنية في أمريكا منذ الهجمات الإرهابية في 9/11. وروى المعلمون أنهم تلقوا أسئلة حتى من الأطفال الفتيان، وهم يحاولون بصعوبة أن يفهموا عهد الولاء. "أمة واحدة... لا تنقسم..." بعد بضعة أيام من 9/11، كنت أقود سيارتي في شارع بيشور في تامبا، ورأيت مجموعة من الناس عند ركن، ويلوحون بالأعلام. ومنذ ذلك الوقت، تقابل "وطنيو بيشور" عند ذلك الركن كل يوم جمعة.

جنودي كانوا ذاهبين إلى لحرب من أجل بلاد موحدة.

بعد أن رجعت إلى مكتبي وكنت أنتظر التقارير عن الضربة الأولى، تلقيت سلسلة من المكالمات من زملائي من رتبة أربع نجوم، ومن جملتهم العديد من رؤساء الخدمات الذين تشاجرت معهم في غرفة القيادة. وكانت رسالتهم الأساسية هي نفسها: "نحن هنا لنساعدك".

وتكلم ويللي مور من البحرين. "أطلقت أول صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي في الساعة 1419، بتوقيت زولو، أيها الجنرال. وسيكون هناك نبض لأربعين دقيقة مع الوقت فوق الهدف(*) كما هو مبرمج، في الساعة 1630 بتوقيت زولو." وطلبت ديك مايرز لأرفع تقريراً عن أن صواريخ توماهوك قد أطلقت بنجاح.

وأدار جيف هينز تلفاز الشاشة الواسعة الموجود في ركن المكتب. "الرئيس يتحدث، سيدي."

لقد كنت نسيت تقريباً. وأعلن الرئيس بوش إلى العالم: "بناء على أوامري، فقد بدأت قوات الولايات المتحدة العسكرية بتوجيه ضربات ضد معسكرات تدريب القاعدة والمنشآت العسكرية لنظام طالبان في أفغانستان."

(*) الوقت فوق الهدف هو الزمن الفعلي الذي خطط فيه للطائرة أن تهاجم الهدف وتصوره.

وتحدث مباشرة إلى أفراد القوات المسلحة، مؤكداً لهم أنهم ينالون "ثقته الكاملة."

وكلمني الوزير رامسفيلد. كان هو وديك مايرز على وشك أن يواجهوا وسائل الإعلام في مركز الصحافة في وزارة الدفاع. وسأل: "هل هناك أي شيء جديد يجب أن أعرف عنه؟"

"العملية تسير قدماً بشكل عادي، سيدي الوزير."

"حسناً، أيها الجنرال. كن حاضراً، وكن ودياً في المعاملة."

وكان رامسفيلد في معنويات جيدة، فخوراً عن حق وواثقاً. لقد أقنع السعوديين بالسماح لنا بإدارة الحرب الجوية من مركز العمليات الجوية المشتركة الموجود في قاعدة الأمير سلطان الجوية. وكسب إلى جانبه أيضاً الرئيس الأزبكي إسلام كريموف. ففي المؤتمر الصحفي الذي عقده كريموف ورامسفيلد في القصر الرئاسي في طشقند قبل يومين، أعلنا أن أوزبكستان سوف تسمح بالطيران فوق أراضيها لوسائل نقل التحالف للمساعدة الإنسانية وستفتح قواعدها الجوية "لطائرات الشحن" وللطائرات العمودية المخصصة للبحث والإنقاذ.

أما الأمر الذي مر من دون أن يذكر في المؤتمر الصحفي فهو موافقة الرئيس الأزبكي على السماح بترتيب التمرحل لقوات العمليات الخاصة في القواعد الأزبكية. لقد التزم الرئيس كريموف بتقديم مساندته لجهود التحالف، ولكنه كان يحتاج إلى الحماية من النقد الداخلي. وهكذا، فحتى عندما كان كريموف يعلن بيانه العام المشترك مع رامسفيلد حول رغبة بلاده في تسهيل المساندة الإنسانية، كانت زمر العقيد مولهوللند من القوات الخاصة مختبئة بشكل جيد في أوزبكستان، تحضر قوة المهام دغر (الخنجر) في قاعدة خارشي خانيباد الجوية، ويحضرون لإدخالهم في معسكرات قادة تحالف الشمال. بعد قليل ستكون أحذية الجنود الأمريكيين فوق أرض أفغانستان.

طوال سنوات حاولت أمريكا أن تقاتل الإرهاب من وراء الأفق، بصواريخ كروز. ذلك المدخل مثّل نقطة واحدة على المتسلسلة المتصلة للنزاع. أما عندما يكون الجند "في تماس" مع العدو فهي نقطة أخرى، نقطة مختلفة اختلافاً بعيداً. وبعد قليل يعلم الطالبان والقاعدة مستوى القتال الذي يقاتل به الجنود الأمريكيون.

على الأقل أنا كنت آمل أن ذلك سيكون بعد قليل: أما دونالد رامسفيلد فقد كان يوصف، وهو بهذا الوصف جدير، بأنه "وراثياً عديم الصبر."

بعد التحدث إلى رامسفيلد ذهبت إلى مركز العمليات المشتركة في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة، وهي قلبُ عرضِ نطاق الترددات العريض لمقر قيادة في عصر المعلومات. وكان أعضاء نوبة النهار، وهم اثنان وثلاثون، منكبِّين على حواسيبهم، مكتظين ساعداً لساعد. والأرضية تأخذ شكل الأفاعي من حزم كبلات الألياف البصرية المتعددة الألوان. وعلى الجدار البعيد كان هناك أربع شاشات بلازمية واسعة. واحدة منها كانت تعرض صور فيديو الاستطلاع الرأسي في الزمن الحقيقي لأهداف في أفغانستان. وكانت الثانية عبارة عن لوحة حاسوبية تعبوية تفصيلية، تنبض بكتل رقمية تُعرّف السفن السطحية الأمريكية، والبريطانية، والغواصات مطلقات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، في بحر العرب الشمالي، والصواريخ المتوجهة إلى الداخل كذلك، والقاذفات الثقيلة والتعبوية من القوات الجوية، وطائرات البحرية إف/إيه-18 هورنيت وطائرات إف-14 بوبكات المقاتلة القاذفة مقلعة عن حاملتي الطائرات إنتربرايز وكارل فينسون.

وقال جين رينيوارت عندما أخذت مقعدي: "لدينا ذخائر على الأرض سيدي."

وكان جماعة الاتصالات يستطيعون التحول من سي إن إن الولايات المتحدة إلى سي إن إن الدولية، وبي بي سي، وتلفاز سكاي، والمحطات الفضائية الأخرى الناطقة بالإنجليزية، ويعطونني بذلك "وعياً بالموقف": ورؤية الأخبار العاجلة التي يعلن عنها في الوقت نفسه الذي يشاهدها فيه القادة الأجانب والناس العاديون حول العالم.

المشهد لا يكاد يصدق. قبل عشر سنوات، في مكتبي في قوة المهام لمناورات لويزيانا فوق الشرفات الحجرية من فورت مونرو، كنت قد حلمت بمثل هذا المنظر الأولمبي لميدان المعركة. وأنا الآن أشاهد في الزمن الحقيقي، في الوقت الذي تقوم فيه مركبات بريديتر الجوية بدون طيار ببث صورة رؤية ليلية بالفيديو لصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي وذخائر الهجوم المباشر المشتركة وهي تنسف مواقع رادارات الدفاع الجوي ومباني القيادة والسيطرة حول كابول وقندهار. وإحدى شاشات العرض انقسمت إلى أربعة قطاعات. ونحن الآن نراقب وصلات فيديو من ضربات طائرات انفرادية عندما تقوم بإلقاء قنابل زنة 500 رطل موجهة بالليزر من وحدات القنابل الموجهة -12 وتحطم مزارع القاعدة في تارناك ومعسكرات تدريب ديورانتا. وبالحكم من خلال الشاحنات الصغيرة والشاحنات العسكرية الواقفة بالقرب من المباني، يمكن القول إن الإرهابيين لم يهجروا كلهم تلك المعسكرات.

وكذلك فإن المجمعات الفردية الموجودة حول جلال آباد، بالإضافة إلى مجمعات الكهوف المعقدة في تورا بورا، كانت تتلقى قصفاً من طائرات بي-52. وعدت بفكري إلى الوراء إلى حُفَر القنابل التي حرثتها طائرات بي -52 بعيداً بالقرب من حدود كمبوديا قبل سنوات عديدة وبدت كأنها الحفر التي تبدو على سطح القمر. ثم تصورت الصور التي لا تنسى من أبراج مركز التجارة العالمي وهي تنهار. وفكرت، اسحقوا أولاد... إلخ.

بعد ساعة لاحقة، على كل حال، كانت طائرة بريديتر تدور قرب قندهار، فكشفت الأخبار غير السارة وهي أن ثلاثة من أهداف الطالبان والقاعدة لم تكن قد ضربت وهي: مطار طائرات عمودية كان الطالبان يطيّرون منه القلة القليلة الصالحة للطيران من نوع ام آي-8، ومدرج طيران يكفي طوله لمعالجة طائرة بمحركين من العصر السوفيتي من نوع مروحي عَنَفي ايه ان -26، ومجمع استحكامات. وكان ضابط ركن الاستخبارات ووكالة الاستخبارات المركزية قد حددا هذه الأهداف بوصفها أهداف "قيادة" محتملة، وهدفان منها كانا طريقي هرب

محتملين، بينما كانت الاستحكامات مخبأ محتملاً للإرهابيين الذين كان يجب أن يكونوا الآن في عداد الموتى. وكانت هذه الأهداف في قائمة الضرب، وهي قائمة دققتها كل وكالة استخبارات لها علاقة بالموقف. ولكن أياً من هذه الأهداف الثلاثة لم يضرب... وكنت أريد أن أعرف السبب.

طلبت جين رينيوات، ورايفل دولونغ، واختليت بهما على جانب، وأنا أحتدم غيظاً. ومع المحافظة على صوتي متوازناً، أوضحت نقطتي. "أرسل هذا إلى تشوك وولد في مركز العمليات الجوية المشتركة. "في المستقبل انتبه إلى أولوياتي- الأولويات المبنية على حاجات الفريق المشترك، وليس على رغبة خدمة واحدة". لقد قمنا بعمل جماعي لجعل هذه الضربة ناجحة. ولكن ما حدث يشبه ثلاث ضربات للكرة في لعبة البيسبول سمحت للضارب أن يعبر دائرة الماسة ويعود لمكانه دون تلقي ضربة. لم أكن أريد تكرار أداء هذه المشكلة.

وقال جين : "أنا أعمل فيها، سيدي." قال ذلك من دون أعذار أو اعتذارات وهو بالضبط ما كنت أتوقعه من ضابط من مقدرته.

وعلى كل حال، وإجمالاً، فإن الموجة الأولى من الهجمات كانت فعالة للغاية. وتم تدمير جميع رادارات ضبط نيران الدفاع الجوي لطالبان باستثناء رادار واحد، إضافة إلى تدمير كل قاذفات الصواريخ التي كان قد تم التعرف عليها في الاستطلاع الذي قمنا به قبل الضربة الجوية. وضربت صورايخنا توماهوك للهجوم الأرضي رادارات الإنذار المبكر التي تحمي الحدود. وتم تعطيل نظام الدفاع الجوي المتكامل لأفغانستان، وهو نظام لم يكن في الأصل قوياً أبداً، ولكنه مع ذلك كان مصدراً للتهديد.

أما الطائرات المقاتلة القاذفة فكانت الآن "تتسكع" على شكل أنماط انتظار مرتبة مسبقاً، وتنتظر المركبات الجوية بدون طيار لتحدد لها الأهداف التي تظهر. وكانت صهاريج إعادة التزود بالوقود جواً قادرة على أن تطير في مسارات داخل الفضاء الجوي الأفغاني، وهو ما يسمح للطيران القاصف أن يتزود من دون العودة

إلى حاملات الطائرات أو إلى القواعد في الشرق الأوسط. وسوف تستمر القاذفات الثقيلة في قصف أهداف القاعدة على مدار الساعة.

عطلنا دفاعات العدو الجوية، ولكنها ما تزال تمتلك القوة على تهديد طائراتنا العمودية بمئات من مدافع آلية عيار 23 ملم زد اس يو والصواريخ المضادة للطيران التي تطلق عن الكتف. وهو ما يعرف باسم أنظمة الدفاع الجوي التي يحملها الإنسان المقاتل. ومعظم هذه الأنظمة المحمولة على الكتف الموجودة لدى الطالبان والقاعدة كانت قديمة، وقصيرة المدى، ومن صناعة سوفيتية من نوع اس ايه-7، والتي يمكن "خداعها" بتوزيع مشاعل تعمل على إرباك الرؤوس الحربية الباحثة عن الحرارة. ولكنك لا تستطيع أن تخدع خيطاً متصلاً من طلقات عيار 23 ملم مطلقة إلى الأسفل من كهف يشرف على ممر عال في جبال هندوكوش.

وبالرغم من هذا التهديد، فقد كنت أعرف أن القوات الخاصة تحت قيادة جون مولهوللند كانت تسرع في محاولة الدخول إلى أفغانستان الشمالية. وكلما أسرعنا في جعل زمر مراقبي القتال الجوي تحدد أهداف الطالبان والقاعدة للقاذفات، استطاعت قوات جند تحالف الشمال أن تتسلق خارجة من خنادقها المشابهة لنمط الحرب العالمية الأولى وأن تتقدم نحو العدو. إن الحملة تتمفصل مع ربط القوات الخاصة، ووحدات تحالف الشمال، والقوة الجوية. وكنا نحتاج إلى أن نتحرك بسرعة. إن الخريف كان قد بدأ يدخل من قبل في جبال أفغانستان، والشتاء قادم بسرعة.

واشتملت الخطة على مخاطرة كبيرة، ولكنها لم تكن مقامرة متهورة.

هناك حكمة عسكرية تقول إن أي خطة لا تبقى حية بعد التماس الأولي مع العدو. ونحن قمنا بالتماس، والآن كنا بحاجة إلى استغلال ميزتنا، مثلما قال الرئيس "دون توقف."

كنت قد رجعت إلى مكتبي عندما دخل جيف هينز. "جنرال، إنهم يطلبونك في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة. بريديتر وجدت هدفاً."

ذهبت مباشرة إلى الغرفة 235 في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة، وهي خلية الدمج، ووصلة تصوير الفيديو لدينا مرتبطة مع مركبات جوية بدون طيار بريديتر تطير فوق أفغانستان. وكانت الوصلة تمتد من القيادة المركزية إلى عربة شاحنة واقفة قرب مبنى مقر وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي، في فرجينيا، ثم من هناك تتصل عبر القمر مع المركبات الجوية بدون طيار. من تلك العربة الشاحنة يطيِّر "طيارو" البريديتر الطائرات بدون طيار، وما رأوه من خلال فيديو الوصلة، كنت أراقبه في خلية الدمج.

كان الوقت أصيلاً خريفياً ساطعاً في تامبا، ولكن الوقت كان متأخراً في ليل صاف تضيئه النجوم قرب قندهار. وكانت المركبات الجوية بدون طيار في مدار بطيء مائل، تراقب قافلة من ثلاث سيارات ودراجة نارية وهي تسرع خارجة من مجمع بجدران طينية نحو المدينة. وكانت السيارة القائدة تويوتا لاندكروزر، والثانية شاحنة صغيرة بيضاء مغبرة مزدوجة المقصورة، متبوعة بشاحنة أخرى تحمل رجالاً مسلحين يزدحم بهم حوض الشحن في السيارة.

وقال لي العميد جيف كيمونز وأنا أجلس أمام شاشة الفيديو: "إن شكل القافلة يناسب قيادة طالبان، سيدي."

وشعرت بدفقة مألوفة من الأدرنالين، شبيهة لما كنت قد عرفته وأنا أطير بصفتي راصداً جوياً في المفارز الزهرية قبل العديد جداً من السنوات. ولكني في هذه المرة لم أكن مربوطاً بالحزام إلى طائرة او اتش-6 عند مستوى حقول الأرز، بل كنت أراقب من خلال عين تصوير فيديو تحت الحمراء في بريديتر على مسار بث مُوجّه من قمر. ولم تكن هذه مجرد مهمة استطلاع روتينية أخرى تم الطيران فيها بطائرة بدون طيار لا تؤذي، هذه البريديتر كانت مسلحة بصاروخين موجهين بالليزر من نوع هيلفير (نار جهنم).

وكانت طائرة بريديتر المسلحة برنامج عمل مخفي حساس لوكالة الاستخبارات المركزية وكانت تعمل طوال عدة شهور من قاعدة سرية في آسيا الوسطى، تتصيد

أسامة ابن لادن وأصحابه في القاعدة في أفغانستان. وكانت هذه العملية هي التي ناقشتها مع ريتشارد كلارك. كان هذا السلاح عظيماً في النظرية، ولكنه يعاني من النقص في الناحية العملية -حتى هذه الليلة.

فكما رتب دونالد رامسفيلد مع جورج تينت، امتلكت القيادة المركزية السيطرة العملياتية على نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية في مسرح الحرب، ومن جملة ذلك الطائرة بريديتر المسلحة. ولكن خطوطي في الصلاحية في الوكالة لم تكن بعدُ قد وضعت موضع التجربة بشكل كامل.

وأومضت الصورة الحبيبية، وبعدئذ نقرتُ إلى تركيز أشد حدة.

وسألت مشغِّل الطائرة بدون طيار الموجود في لانغلي: "هل نستطيع الحصول على تقريب أشد؟"

وأجاب الصوت الشاب: "سوف أحاول، سيدي."

وطوال عدة دقائق حرك مطيّر البريديتر الطائرة، محافظاً عليها إلى الغرب من القافلة، على ارتفاع عدة آلاف من الأقدام فوق الطريق المليء بالحفر والأسْود السطح.

وكان ضابط مناوب من مديرية وكالة الاستخبارات المركزية موجوداً في العربة الشاحنة في لانغلي. وقال الضابط: "أيها الجنرال، هذا الهدف يمتلك كل خصائص قافلة القيادة. لديك هنا سيارة مسلحة في المقدمة وأخرى مسلحة تتبعها. والشاحنة الصغيرة في الوسط بمقصورة مضاعفة. تلك السيارة يمكن أن تكون السيارة الشخصية للملا عمر."

راقبت القافلة الصغيرة وهي تتحرك بثبات جنوباً غرباً نحو أضواء مدينة قندهار. فإذا استطعنا أن نضربها الآن، في هذه الصحراء المفتوحة، فلن يكون هناك خطر لوجود أضرار جانبية. إذا توقفت القافلة، فسوف يكون لدينا احتمال لقتلها بنسبة 0.9 ونسبة 10 بالمائة فقط من خطر عدم إصابة الهدف. ولكن إذا أطلقنا

النار على سيارات متحركة، فإن احتمال القتل هو 0.3 فقط، ومخاطرة بالفشل بنسبة 70 بالمائة.

كانت كبيرة المستشارين العدليين العامين للقيادة المركزية، النقيب البحري شيللي يونغ، تقف إلى جانب كرسيي. وكانت هي المحامي الذي سيبقيني منصفاً منسجماً مع قواعد الاشتباك ومع قانون الحرب الأرضية، إذا قررت أن أطلق النار. ولم تكن شيللي من نوع محاميك النموذجي الذي يكون من ناحية - ومن الناحية الأخرى.

درست شيللي القافلة وقالت: "هدف مشروع."

وأخبرت مدير العمليات رينيوارت: "جين، دقق مع مركز العمليات الجوية المشتركة ولنر إن كنا نستطيع أن نبني صندوق قتل لطائرات اف-14 أو اف-18 لضرب القافلة في مكان أقرب ببضعة أميال إلى قندهار." كان "صندوق القتل" هو المستطيل الخيالي المتشكل من 200 متر في 400 متر والذي تُقذف فيه القنابل. وتخيلت مدى الهدف المتحرك الذي كنت بنيته في فورت هود قبل سنوات خلت. إن تدمير تلك القافلة سوف يتطلب توقيتاً دقيقاً وقذف ذخائر من طائرة تطير على ارتفاع 20.000 قدم. حساب قاس جداً للزمن والمسافة، ولكن مع احتمال للقتل أعلى بكثير مما لو استعملت صواريخ هيلفير المحملة على بريديتر ضد سيارات متحركة.

مضت عشر دقائق، ثم عشر أخرى. ولم يستطيع مركز العمليات الجوية المشتركة أن يبني صندوق قتل بسرعة كافية. لقد فقدنا الفرصة.

شاهدت شاشة البلازما. أسرعت القافلة، تتقدمها الدراجة النارية، عبر الشوارع الفارغة في قندهار، وهي تمر على المجمعات السكنية من جدران الكتل الطينية المحيطة بساحات مفتوحة. وتوقفت السيارات قرب مركز المدينة، وهي منطقة من مبان من طابقين أو ثلاثة مفرقة داخل المزيد من المجمعات المحاطة بالجدران. ودارت طائرة البريديتر في مدارها، غير مرئية على ارتفاع مأمون وعينها

في آلة تصوير الفيديو مثبتة على السيارات. وأشارت ساعة رقمية عند ركن الشاشة لقراءة الساعة 1505 بالتوقيت الشرقي. وكانت الساعة 0435 في قندهار. ساعتان إلى الفجر.

أمرت المشغل: "أعطني حالة الوقود الحقيقية في المركبة الجوية بدون طيار"

سيدي، نحن بحالة جيدة لساعتين، وعشر دقائق قبل إشارة بنغو للوقود والعودة إلى القاعدة. وبنغو للوقود كانت تعني وجود الحد الأدنى للعودة إلى القاعدة بأمان.

وأمرت: "ثبت المحطة."

عديدون من الناس من القافلة ركضوا داخلين إلى مجمع على الجانب الأيمن من الشارع. وسألت: "كم يستغرق من الوقت لتوجيه البريديتر لتوجه طلقة هيلفير؟"

وأضافت شيللي ونحن ننتظر الجواب "هدف مشروع للهيلفير."

وقال المشغل في لانغلي: "المحاذاة للتسديد لإطلاق طلقة يستغرق حوالي خمس دقائق إلى الإطلاق."

الرجال الذين ركضوا داخلين إلى المجمع عادوا إلى سياراتهم يحملون عدة حاويات كبيرة.

وتمتمتُ "أنظمة دفاع جوي محمولة مع المقاتل" وقد حدّدتُ محافظ الصواريخ التي تطلق من الكتف، وسألت لانغلي: "ما حالة هيلفير؟"

"يأخذ التحاذي للتسديد الآن..."

تأخر جداً. انطلقت السيارات مسرعة خارج المدينة، بعيداً عن أضواء قندهار.

"تباً لها." لا طلقة حتى الآن.

بغض النظر عن قدرتنا على أن نحافظ على بريديتر طائرة، فإن هذه القافلة ستقف ثانية. مرت خمس عشرة دقيقة، خمس وعشرون، أربعون. كانت السيارات متجهة بعيداً عن المدينة بسرعة عالية، ثم وقفت فجأة، في صحن مسجد، وهو

مبنى واسع بقبة، محاط بأكواخ طينية وبالعديد من المباني المكونة من ثلاثة طوابق، وهي مساكن لذوي الدخول العالية حسب المستويات الأفغانية.

وقلت: "حاذ لتسديد البريديتر لتطلق هيلفير، خذ المقصورة المزدوجة."

وقالت شيللي يونغ: "لا قضايا... هدف مشروع."

انفتحت أبواب السيارة، وقفز الركاب خارجها وتحركوا بسرعة نحو المسجد وأمرت لانغلي "بسرعة، بسرعة."

خرج الناس من المسجد وحيوا الرجال الذين يغادرون السيارات. وبعد المصافحة، وضع الناس القادمون من داخل المسجد أيديهم على قلوبهم، وهي إشارة واضحة للاحترام. وقلت والجماعة كلها قد دخلت المبنى: "هذا هدف قيادي." وعندما كنت أشاهد تذكرت محادثتي الأخيرة مع الرئيس بوش. لقد ناقشنا الضرر غير المقصود الذي يقع على المدنيين، "الضرر الجانبي"، وقد ذكرني الرئيس بأن العدو هو القاعدة والطالبان، لا الشعب الأفغاني. وقال: "إن هذا ليس حول الدين، فإذا رأيت ابن لادن يدخل المسجد، انتظر إلى أن يخرج واقتله." وفكرت، أنتظر إلى أن يخرجوا.

"كم بقي من زمن محطة بريديتر؟"

وقال المشغل: "أقل من ساعة، سيدي"

"هل تستطيع أن تزيل واحدة من السيارات السيدان الواقفة بالقرب من الجدار؟ ربما كان ذلك سيقنع الناس بمغادرة المسجد ويعطينا طلقة على الرؤساء."

بعد خمس دقائق، تمزقت سيارة سيدان سوداء في كرة نار. وتراكض الرجال الذين كانوا يحرسون السيارات في كل اتجاه. ولم ينظر أحد منهم إلى الأعلى. فلم يكن لديهم أي فكرة ما الذي ضربهم.

وعندما كانت طائرتا بحرية اف/ ايه -18 هورنيت تدوران حول قندهار، وهما مسلحتان بقنابل زنة 500 رطل موجهة بالليزر من وحدات القنابل الموجهة-12، راقبتُ

باهتمام عندما قام الناس الموجودون على الأرض بالركض من المسجد والإسراع إلى السيارات المتبقية. وعندما اندفع حراس الأمن المسلحون جيداً للالتحاق، ابتعدت السيارات والشاحنات مسرعة وتسابقت على طول الطريق المرصوف بالحصباء إلى الشمال الشرقي. لقد توقفوا على بعد حوالي ميل ونصف، أمام بيت كبير متعدد الطوابق خلف جدار مثل القلعة.

وأمرت مركز العمليات الجوية المشتركة في المملكة العربية السعودية: "اجعل النفاثات تحدد المجمع وتستعد للإسقاط. وسوف أستوضح هذا مع الوزير بوصفه هدفاً تصاحبه أضرار جانبية عالية."

ووافقت شيللي يونغ.

بدأت خلية الدمج تزداد ازدحاماً. كان جيف كيمونز في الركن، ويتحادث مع وكالة الاستخبارات المركزية، وحسب تحليلهم، فإن رؤساء القيادة والحراس كانوا في المبنى داخل المجمع.

ومشيت عبر القاعة إلى مكتبي، وأخذت الهاتف اس تي يو111، وشرحت الموقف للوزير رامسفيلد.

سوف أهاتف الرئيس فوراً، يا جنرال، وأعود لأهاتفك. وإذا خرجت الأهداف من البيت قبل أن أعود إليك فاقتلهم. وفي غضون خمس دقائق، كان الرئيس بوش قد وافق على الهدف ليضرب ضرباً مباشراً.

وعندما اندفعت مسرعاً إلى خلية الدمج، كان ضابط من وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي على الهاتف المأمون بمكبر الصوت مع كيمونز. وقال لجف "لا تطلق النار. فنحن نعتقد أن هذا المبنى مسجد."

ضممت قبضتي وأقسمت بصمت. لم تكن هناك قبة، ولا منارة مثل المبنى الآخر. وقلت: "لا يبدو لي مسجداً."

ونصحت شيللي يونغ :"مازلت جيداً، سيدي"

وقال جيف كيمونز: "بعض الناس قد غادر المبنى، ولكن بعضهم ما يزال في الداخل."

وأمرت تشوك وولد في مركز العمليات الجوية المشتركة، على بعد سبعة آلاف ميل: "مر الطيارين أن ينفذوا الإسقاط."

وعندما مالت بريديتر مبتعدة لتجنب القاذفات القادمة، اختفى المجمع في سحابة من الغبار والدخان. بعد ستين ثانية، تلقينا تقارير الطيار: تم تدمير الهدف تدميراً كاملاً.

وفي غضون ساعة، كلمني ديك مايرز من هاتف اس تي يو-111. وقال: "يا توم، كان جون جمبر يراقب منظر بريديتر في عمليات القوات الجوية هنا في البنتاغون وهو يخبرني بأن الرؤساء كانوا قد غادروا البيت قبل أن تدخل إليه القنابل. وهو يعرف أن هذا عملك، ويقول إنه يحاول أن يكون عوناً فقط."

طباخ تكملة عدد بموجب القانون العاشر يحرك الحساء. ما الذي كان يحدث لسلسلة القيادة؟

كان الجنرال غاري لوك، رئيسي القديم من عاصفة الصحراء وكوريا، قد تقاعد الآن، وهو مراقب كبير مع قيادة القوات المشتركة، جاء إلى تامبا لينصحني وليستوعب الدروس المستفادة من هذا النوع الجديد من الحرب. كان يقف بصمت في الركن من خلية الدمج عندما سلم مايرز الرسالة من جمبر، وهو يراقب وينصت. عندما رفعت رأسي ونظرت هز رأسه مشاركاً لي في إحباطي.

في القتال، يجب أن يكون هناك خط واحد للسلطة. ولكن في هذه المهمة السيئة كان هناك القيادة المركزية، ووزارة الدفاع، والبيت الأبيض ووكالة الاستخبارات المركزية... والنصيحة غير المبررة من رئيس الخدمة. وتوقعت أن يقوم شخص ما في واشنطون بتسريب نسخة ما من هذه القصة إلى الصحافة في غضون أسبوع. ولن أكون خائب الظن.

وبعد أن شكرت الوزير على رد فعله السريع ورد الرئيس، طلبت ديك مايرز.

"يا ديك، سيتوجب علينا أن نفكك إسهامات الخدمات في هذا القتال. أنا أحترم ما يعتقد جماعة جوني جمبر أنهم رأوه على مسارات بث بريديتر، طائرة وكالة الاستخبارات المركزية. وسوف نفكر في طريقنا عبر الإحباط والاحتكاك في هذه المعادلة المشتركة بين الوكالات الرسمية المتعددة. ولكننا سنحتاج لا إلى وحدة القيادة فقط، ولكن إلى وحدة الجهد أيضاً. وأنا سأقدم القيادة، وأنت تعمل مع رؤساء الخدمات لتحصل على وحدة الجهد."

"أنا أسمعك، يا توم." ديك أيضاً كان محبطاً بوضوح.

وقلت: "نحن نريد جمبر أن يركز على إسهام القوات الجوية. أن يضرب الأهداف المقصودة، بالذخائر الصحيحة، في خطوط الزمن المقصودة. أنا سأعمل مع بريديتر الوكالة، واختيار الهدف، والتنفيذ. والوزير وأنا سوف نرتب التوقيتات والصلاحيات. وأنا سأقدر لك إن كنت تستطيع أن تزيل مسار البث الخاص بطائرة زفت... بريديتر من المبنى، وزارة الدفاع. اسمي ليس ويستمومورلند(*)، ولن أقبل من واشنطون إعطاء تكتيكات وأهداف لأبنائنا في حجر الطيارين وعلى الأرض في أفغانستان."

واستمر ديك بالإنصات بصبر. "أنا أوافق، وسوف أساعد. هذا قتالك، ياتوم."

بعد ذلك اجتمعت مع جين رينيوارت وجيف كيمونز. "ليست بداية سيئة، يارجال. القتال مستمر، وأنا فخور بحرفيتكم."

وانتظروا وهم يعرفون أن لدي المزيد في ذهني.

وتابعت: "بعد أن قلت ذلك، أريدكم أن تعقدوا فوراً مؤتمراً خاصاً سريعاً مع جماعة العنصر الجوي ومع وكالة الاستخبارات المركزية. هناك الكثير من الدروس

(*) الجنرال وليام ويستمورلند (١٩١٤م) قاد القوات الأمريكية في فيتنام ١٩٦٤- ٦٨، عرف بالتقدير الإيجابي لمستقبل القوات الأمريكية في فيتنام، وكانت ١٠٠,٠٠٠ ولكن تطور الحرب خالف تقديراته وزادت القوات إلى ٥٠٠,٠٠٠ وانتهت الحرب بجرح عميق للعسكرية الأمريكية.

التي يجب أن نتعلمها هنا. أزيلوا التضارب(*) وتجنبوا النزاع في مسألة الفضاء الجوي للبريديتر، قرروا خطوط توقيت واقعية للضربات لكل من الطائرات المسلحة بدون طيار ولنفاثاتنا، وحددوا أي قضايا تتصل" بالشخصية "أحتاج إلى حلها. سنقاتل قتالاً مشتركاً... وسوف نبدأ الآن مباشرة."

وبكلمات أخرى، فإن عناصر الجو، والأرض، والبحر، والعمليات الخاصة كانت ستتصرف بوصفها فريقاً حقيقياً.

ولاحقاً، سوف يشير أركان القيادة المركزية إلى الفترة الممتدة بين ذلك الأحد مساء في تامبا وبين 18 تشرين الثاني/ أكتوبر بوصفها "الأيام العشرة من الجحيم." كان الضباب والاحتكاك الذي يتحدث عنه كلاوزفيتز يتنزل على القيادة.

طوال تلك الأيام الأولى كان معدل الحركة البطيء لعملياتنا مصدراً للإحباط المستمر.

ولم تكن مشكلتنا تنشأ من مصدر واحد، سهل الحل. كان هناك ورطات داخل مآزق بخيارات صعبة. ونتيجة لذلك،لم نكن قادرين على إدخال زمر القوات الخاصة تحت العقيد جون مولهوللند إلى أفغانستان الشمالية بالسرعة التي كان رامسفيلد أو أنا نريدها، وهو تصريح مخفف ذو أبعاد تاريخية.

وعدم الصبر المزمن لدى رامسفيلد لم يكن بمثل هذا الوضوح من قبل أبداً. عند هذه النقطة من العملية كان لي مع الوزير مكالمتان هاتفيتان مبرمجتان يومياً، واحدة في الساعة 0745 والثانية في 1630. وكانت هناك مناقشات غير مبرمجة، كان بعضها طويلاً، وبعضها قصيراً، وفي صميم الموضوع، وما يمكنك أن تسميه خشناً.

طوال عشرة أيام، كانت أول كلمات يتحدث بها الوزير في كل محادثة فعلياً تخص القوات الخاصة. 'متى سيحدث شيء ما، أيها الجنرال؟" "لا أرى أي حركة،

(*) إزالة التضارب أو تجنب التنازع هي استراتيجية عسكرية تحاول وضع الطائرات وغيرها من العربات في طرق مناسبة لئلا تتضارب مع بعضها.

ياجنرال فرانكس." "ما هو الموقف مع تلك الزمر، يا جنرال؟" التنويعات كانت قليلة، وعميقة دقيقة: "هل تستطيع التكهن متى سيحدث شيء ما؟" "أين توجد الزمر، ياجنرال؟"

لم يكن رامسفيلد شخصياً مسيئاً أبداً. ولكنه لم يكن ما يمكن أن نسميه "سهل التعلم وسهل الاستخدام."(*) فقد استمرت أسئلته، بلا رحمة.

وكان الجواب هو أننا جميعاً نبذل جهداً للتأثير فيها. ولكن نقل زمر القوات الخاصة، مع مراقبيهم الجويين القتاليين، من قاعدة خارشي خانيباد على سهول الأزبك، عبر وادي نهر آمو داريا- وهو نهر جيحون، نهر الإسكندر المقدوني- وإلى داخل مرتفعات الأفغان للاتصال مع تحالف الشمال، أثبت أنه تحد هائل.

والموقف التعبوي في الشمال كان معقداً. فقوات الطالبان، تساندها جماعات من جند القاعدة، كانت تحتل البلدات والمدن الرئيسية قرب حدود تركمانستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان. وسيطرت على الطرق بحوالي مائتي دبابة من الاتحاد السوفيتي السابق وناقلات الجند المدرعة، وعشرات من المدافع الرباعية عيار-23 زد اس يو، وهو سلاح كريه بشكل خاص، وهو مقطور ومضاد للطيران وكان أيضاً أداة قوية ضد المشاة.

وجَيْب الأرض المحوّط المدافع عنه أفضل دفاع من تحالف الشمال كان يقع في الركن الشمالي الشرقي البعيد من أفغانستان، وهي القاعدة السابقة للجنرال أحمد شاه مسعود، وهي الآن تحت قيادة محمد فهيم خان. وكان عبد الرشيد دوستم، وهو أزبكي عرقياً، يقود أقوى تشكيل تالٍ من تحالف الشمال. وكانت قواته وقوات منافسة سابقاً وحليفه أحياناً محمد عطا، تمسك بسلسلة إستراتيجية من ذرى الجبال والوديان جنوبي تقاطع طرق مزار شريف.

وما من واحد من "أمراء الحرب" هؤلاء يمكن اعتباره ذا شخصية أخلاقية عالية عندما يصل الأمر إلى الحقوق الإنسانية، ولكنهم كانوا قديسين مقارنة

(*) يستعبر المعنى من الحاسوب، هذه ملامح تبنى في المعدات وفي البرانج الحاسوبية تجعل الحاسوب أو برنامجه سهل التعلم وسهل الاستخدام. ويحرص عليها معظم المستخدمين.

بالطالبان. ولديهم جند مجربون. لقد كرهوا الطالبان والعَرَبان (وهو لفظهم الاستهزائي للقاعدة، التي ضمت أعداداً كبيرة من الشيشان والباكستانيين)، وكانوا أكثر من راغبين للعمل معنا.

واعتمدت خطتنا على دمج هؤلاء المقاتلين المعارضين الأشداء المحفزين تحفيزاً عالياً مع القدرة الجوية الضخمة للتحالف. ولعمل ذلك، على كل حال، كان يجب علينا أن نضع زمر القوات الخاصة، أي، مفارز ألفا العملياتية، مع كل واحد من قادة تحالف الشمال.

وكان هذا هو الذي توقفنا عنده. كان فريق متقدم من وكالة الاستخبارات المركزية، واسمه الرمزي جو بريكر (كاسر الفك)، موجوداً مع فهيم، ولكن، كان ما يزال يجب، على ضباط الوكالة الآخرين حتى حينه أن يتصلوا مع دوستم، ومع عطا، ومع مرؤوسيهم. وعلى الرغم من أننا كنا نؤسس اتصالات مع القادة المتباينين لتحالف الشمال، كان ما يزال يجب علينا حتى حينه أن نضع أي ضباط من الوكالة مع القادة فعلاً لنمهد الطريق لقواتنا الخاصة.

قوة المهام دغر (الخنجر) تحت قيادة جون مولهوللند كانت تنمو، وجاهزة للتحرك في قاعدة خارشي خانيباد. وكنا بحاجة للصلات مع تحالف الشمال وإلى وسائل نقل لإدخال الزمر. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية تملك الوصول إلى عدد قليل من الطائرات العمودية من نوع ام اي-17 شبه الصالحة جوياً، وكانوا يستخدمونها لمساندة تحالف الشمال. ونظراً إلى أن الطالبان استخدموا طائرات عمودية مشابهة، فإن هذه الطائرات كانت على الأرجح أقل جذباً للنيران الأرضية من طائرات ام اتش -60 بيف هوك وام اتش-47 من الفوج المائة والستين، فوج طيران العمليات الخاصة. لقد كنت أريد القبعات الخضر تحت قيادة مولهوللند أن يدخلوا على متن الطائرات العمودية ام آي-17، ولكن الترتيبات لم تكن تعمل.

وكما قدم مولهوللند تقريره، فإن الطائرات العمودية القديمة لم تحضر قطعياً حسب الموعد المخطط. وعندما وصلت، فهي عادة تعاني من أعطال هيدرولية أو من مشكلات في المحرك، وهي أمور أبقتها على الأرض.

ثم كان هناك الطقس الفظيع. محاولاتنا الأولى لإدخال الزمر، واحدة لفهيم وواحدة لدوستم، ارتدت للخلف بعواصف الغبار التي جعلت الرؤية صفراً. ومحاولات الطيران التالية واجهت المطر الذي تحول إلى ثلج يعمي عندما حاولت الطائرات العمودية القديمة أن تصل إلى قمة الممرات العالية. وفي الحال صار واضحاً أن التجهيزات السوفيتية القديمة لن تكون موثوقة بشكل كاف للوفاء بتوقيتات خطوط الزمن المطلوبة.

ولكن القاعدة الجوية في خارشي خانيباد لم تكن جاهزة بعد لمساندة الطائرات العمودية للفوج المائة والستين، فوج طيران العمليات الخاصة التي كانت مهيأة لتنقل جواً من ألمانيا. وكان مولهوللند وقبعاته الخضر، ويساعدهم ملاحو عمليات قاعدة القوات الجوية النشيطون، يكافح من أجل تحويل قاعدة خارشي خانيباد إلى قاعدة عمليات متقدمة، ولكن، ومع مرور كل يوم، زادت احتمالات الطقس السيئ، على طول طرق التسلّل الجبلية.

ولم يكن ذلك هو التحدي الوحيد. فضباط الوكالة المتقدمون واجهوا الظروف نفسها أو أسوأ منها وهم يقومون بالعمل من دوشانبه في طاجيكستان. فبعد التماس الأولي مع قادة تحالف الشمال، كانت زمر وكالة الاستخبارات المركزية غير قادرة في الأغلب على أن تعود لعدة أيام. وفي أثناء مكافحة قادة تحالف الشمال لإتقان هواتفهم الفضائية الجديدة، فإنهم كانوا يستنفدون البطاريات بسرعة أكبر من السرعة التي كان يمكن بها إعادة تزويدهم بالبطاريات، وبهذا كنا نفقد الاتصال معهم مراراً لمدة طويلة.

وأخيراً، بعد ستة أيام من بدء العملية، في دعوة لمؤتمر ربطني مع جون مولهوللند، وغاري هاريل، وبرت كاللاند، جاء التقرير الذي كنا ننتظره: قوة المهام دغر (الخنجر) ستأخذ طائرات عمودية ام اتش-60 بيف هوك وام اتش-47 جاهزة وتطير في غضون أربع وعشرين ساعة.

وقلت للفريق: "هذه أخبار عظيمة."

ولكن جون مولهوللند قال بتقريره في اليوم التالي إن الطقس السيئ قد ضرب مرة ثانية، وسبب تقريباً أول ضحايا للتحالف في الحملة. وذلك أن طائرة عمودية من نوع ام اتش-60 تحمل زمرة كانت في طريقها إلى دوستم فتجمدت أجزاؤها الدوّارة الرئيسية بالجليد في ضباب متجمد فوق ارتفاع اثني عشر ألف قدم. و"انزلقت" الطائرة وهبطت بشدة، وتحطمت، وتُركت، وأما القبعات الخضر والملاحون فكدحوا نازلين عبر الثلج إلى ارتفاع أدنى، ومن هناك التقطتهم طائرة عمودية للبحث والإنقاذ القتالي. وأصيبت طائرة أخرى من نوع بيف هوك بنيران أرضية وهي تجهَد صاعدة في واد عميق نحو ممر، فتعطلت وعادت إلى قاعدة خارشي خانيباد.

وقال مولهوللند في تقريره: "سوف نبقى مع المشكلة. ولكن التقدم هنا قاسٍ."

في ذلك الأصيل، أجبت وابلاً من الأسئلة من دونالد رامسفيلد بدأ: "ما هي حالة الزمر، أيها الجنرال؟"

وشرحت الصعوبات، ولكنني ارتكبت غلطة بالانزلاق إلى مصطلح الطيران، مشوشاً تقريري بتعابير مثل "كثافة الارتفاع" وهي التي تؤثر على قدرة الرفع في عمليات الطائرات العمودية الجبلية.

وطلب رامسفيلد: "هل نملك المعدات الصحيحة هناك، يا جنرال؟"

"نحن نملك ذلك، سيدي الوزير، ولكن ذلك سيستغرق وقتاً."

ولم يكن رامسفيلد مسروراً. لقد مضى على التحالف وهو يقصف أفغانستان أكثر من أسبوع. والصحافيون الدوليون الذين احتشدوا من باكستان كانوا يبثون صور فيديو عن الطائرات الأمريكية وهي تقصف سفوح الجبال. والشبكات كانت تبث شريطاً وتعيد بثه عن العربات المدرعة الخاصة بالطالبان وهي تتحرك في وضح النهار مع حصانة واضحة. وبثت محطة بي بي سي تقريراً طويلاً، متشائماً عن كون تحالف الشمال "محاصر بشدة" خلف خطوط خنادقه. وكان رامسفيلد يريد

نتائج. كان يريد أن يعطي تقريراً عن إنجازات محسوسة: شيء ما أكثر من إسقاطات جوية للإعاشات اليومية الإنسانية.

وحتى هذه الرحلات الإنسانية من رامشتاين كانت قد بدأت تسبب مشكلات. فقد حصلت أوكسفام إنترناشيونال على استماع إعلامي واسع بإعطاء تقرير يفيد أن القرويين الجياع في الجبال الشمالية الجرداء كانوا يطاردون رزم الإعاشة البلاستيكية الصفراء اللامعة إلى أن يدخلوا حقول الألغام. وعلى الرغم من عدم وجود أدلة على أن هذا هو ما حدث فعلاً، فإن التصور نفسه لطّخ الجهد الإنساني الجدير بالانتباه.

ولكن كان هناك المزيد من الأنباء السيئة. فمنذ آب/أغسطس كان الطالبان يحتجزون ثمانية عاملين متطوعين غربيين من المنظمة الألمانية شيلتر ناو (مأوى الآن). وكان الطالبان يهددون بمحاكمتهم بتهمة التجسس والحكم عليهم بنوعهم القاسي من العدالة الإسلامية. وكان رجال وحدات المهام الخاصة تحت قيادة ديل ديلي على ظهر كيتي هوك يخططون لعملية إنقاذ بالتعاون مع ضباط الوكالة في الميدان، ولكن وسائل الإعلام كانت تغزل خيوط دراما تقول ضمناً إن الولايات المتحدة كانت عاجزة بلا حول لمساعدة هؤلاء الرهائن الأبرياء.

كنت منشغلاً، ولكنني لم ألاحظ في مؤتمرات الفيديو التي كنت أعقدها مع البيت الأبيض أي قلق من الرئيس جورج بوش عندما وصفت له صعوباتنا في تسلل القوات الخاصة. وقال الرئيس: "اثبت على الخطة، يا تومي. سنكون صبورين. ويستغرق هذا ما يستغرق."

وفي الأصيل التالي، قبل مكالمتي المبرمجة مع رامسفيلد، قدم جون مولهوللند تقريراً يقول إن مزيجاً مشتركاً من الطقس السيئ والنيران الأرضية قد ردت للخلف فوق ما تقدم محاولة طيران تسلل أخرى.

كان الوزير مغتماً. "يا جنرال فرانكس، هذه لا تعمل. أريدك أن تبني خيارات ستعمل."

وأخيراً، قررت أن أبتعد عن سطوع الفلوريسنت الذي لا يومض وصوت الأز الذي لا يتوقف من الإليكترونيات الساخنة في مركز العمليات المشتركة وفي خلية الدمج.

وقلت لكاثي: "افتحي زجاجة خمر. سأكون في البيت في غضون خمس عشرة دقيقة."

بعد العشاء، كنت مضطرباً جداً إلى درجة لم أستطع معها أن أسترخي. ذهبت إلى غرفة مكتبي واستخدمت الهاتف المأمون لأطلب دعوة لمؤتمر غير مبرمج من قبل مع رامسفيلد وديك مايرز. لقد كنت منهكاً، متعباً لأن علي أن أشرح كل مشكلة عملياتية للوزير. كنت أعرف أننا سوف نوصل قواتنا الخاصة ونضعها على الأرض قريباً، وأن الموقف سوف يتغير بعد أن نكون قد حققنا ذلك. ولكنني أعتقد أن الوزير لم يكن يصدق هذا.

وقلت: "سيدي الوزير، من ملاحظاتك في وقت أبكر من هذا اليوم، يبدو لي أن لا ثقة لك بي بعد الآن..."

وبدأ رامسفيلد: "جنرال..."

"لا، يا سيدي. أرجو أن تسمعني بشكل كامل. إنه لأمر جوهري بالنسبة إلى المهمة أن تكون لك الثقة في القائد. إذا كنت قد فقدت الثقة... يجب أن تختار قائداً آخر."

كان الخط صامتاً.

وأخيراً قال رامسفيلد: "يا جنرال فرانكس، أنت لك ثقتي الكاملة. هذه العملية ستنجح."

وأضاف ديك مايرز: "أنا أتفق معه، يا توم. إنك تقوم بعمل عظيم تحت ظروف صعبة ونحن سنساندك في كل طريقة نستطيعها."

"شكراً لك، سيدي الوزير. وشكري لك، يا ديك. شيء واحد تستطيعان عمله

وهو تذكير رؤساء الخدمات عن سلسلة القيادة. إنهم ما يزالون يعملون بشكل جيد في صناعات الكوخ(*) لخدماتهم الفردية، وهذا لا يساعد."

وقال ديك مايرز: "أنا سأعتني بها." وأعتقد إلى هذا اليوم أنه فعل كل شيء في مقدور سلطته ليبقي رؤساء الخدمات في مساراتهم المحددة.

وفي أثناء مكالمتي المنتظمة مع الوزير في الصباح التالي،لم يبدأ رامسفيلد كلامه بسؤال عن نفاد الصبر حول الزمر. وبدلاً من ذلك، طلب مني أن أعلق على استخدام القنابل دقيقة التوجيه زنة 5000 رطل، قنابل "المتغلغل العميق" في الجبال البيضاء. وشرحت فاعلية هذه العملية: فعلى الرغم من أن جمهور المشاهدين الدوليين للتلفاز قد يكون رأى هذه الانفجارات بوصفها انفجارات عشوائية على سفوح تلال فارغة، فقد كانت فعلاً ضربات دقيقة وكانت تقتل القاعدة وتدمر ملاذاتهم.

قال رامسفيلد: "مثير للاهتمام. أنا أحب أن أعلم هذه التفاصيل."

"أنت تسأل، سيدي الوزير، وأنا أجيب."

الأيام العشرة من جهنم انتهت في يوم الجمعة 19 تشرين الأول/أكتوبر. فقرب منتصف الليل، بتوقيت أفغانستان، في بداية فترة ما بعد الظهيرة في تامبا أدخل جون مولهوللند أول زمرة-أ من القوات الخاصة إلى مقر الجنرال دوستم، في قرية مبنية بكتل الطين جنوبي مزار شريف. فالطائرات العمودية ام اتش-47 من الفوج المائة والستين، فوج طيران العمليات الخاصة، والتي كانت تحاول لعدة ليال أن تنقل زمرة - المفرزة العملياتية ألفا 595 عبر الجبال، قد نجحت أخيراً. وكنا الآن نملك زمرة من اثني عشر رجلاً من القبعات الخضر ذوي المهارة العالية- إشارة النداء تايغر2 (النمر)- مع ميليشيا دوستم. وكان التنبؤ الجوي يوحي بطقس جيد في اثنتين وسبعين ساعة قادمة، وقدم مولهوللند تقريراً بأن زمرتي-أ أخريين سوف

(*) الصناعات المنزلية العائلية قبل الثورة الصناعية.

تدخلان، زمرة مع محمد فهيم، وزمرة محمد عطا. وعندما يقوم المزيد من عناصر وكالة الاستخبارات المركزية بالاتصال مع أمراء الحرب الآخرين فسيتم إدخال زمر- أ إضافية مع بقية وحدات تحالف الشمال.

قال مولهوللند في تقريره: "الأمور تسير، سيدي."

كنت مسروراً. ولكننا ما نزال نعمل في موضوع "رمز اللباس" الذي ستذهب فيه هذه الزمر إلى القتال. إن جزءاً من ثقافة القوات الخاصة يقضي بأن تقوم هذه الزمر بتبني مظهر الجند المحليين الذين تخدم معهم. إن هذه الزمر سوف تقاتل إلى جانب رجال قبائل الطاجيك، والأزبك، والهزارا، وهم محاربون جبليون أشداء، وكانوا يلبسون ملابس متميزة. وإلى أن نستطيع أن نزود تحالف الشمال بملابس المعركة على الطراز الغربي، فإن مقاتلي التحالف كانوا يلبسون بديلاً عن ذلك ملابس من صنع وطني. وكان مولهوللند يريد لرجاله، بحق، أن يختلطوا، وهو الأمر الذي كان يعني أن "يظهروا محليين." وكان هذا يعني حساً تعبوياً جيداً كذلك. فالعدو قد درب رماة قناصين سيستطيعون بسهولة تحديد الأمريكيين الذين يرتدون البزة العسكرية الصحراوية الموهة. ولكن واشنطون كان لديها اهتمامات قانونية.

لقد كانت مشكلة مزعجة. فالجنود الأمريكيون الذين يقاتلون من دون البزة العسكرية قد لا يعاملون معاملة أسرى الحرب إذا وقعوا في الأسر، وبدل ذلك قد يعدمون بصفتهم جواسيس. ومن ناحية أخرى، فإن أي واحد من القبعات الخضر سوف يعدم على الأرجح بغض النظر عن الملابس التي يرتديها. والحل الوسط الأخير طلبَ من رجالنا أن يلبسوا على الأقل "قطعة ملابس بارزة واحدة" من البزة حسب التعليمات: قميص الزى العسكري الصحراوي المموه، أو معطفاً، أو بنطالاً، فهذا سيكون كافياً.

هذه حرب كانت تتطور لتنقلب إلى حرب غريبة.

وحالما سمعت من مولهوللند طلبت ديك مايرز. "أخبر الوزير أننا نملك خيالة قوات خاصة على الأرض، والمزيد منهم في الطريق."

"هذه أخبار جيدة، يا توم، سوف يسر بها الوزير."

بعد عشرين دقيقة كنت قد رجعت إلى وحدة السيطرة الخاصة بالقائد في مركز العمليات المشتركة، أراقب حروف بطاقة الهوية الرقمية للطائرات وهي تتحرك عبر صورة أفغانستان على شاشة البلازما. في أقصى الشمال، ظهر الرمز تايغر 02، مبثوثاً بمسارات بث بالأقمار المأمونة، وظهر في مركز شكل بيضاوي مظلل يمثل منطقة عمليات دوستم.

كانت الساعة 1429 في تامبا، والساعة 0100 تقريباً في 20 تشرين الأول/أكتوبر في أفغانستان. كانت أربع طائرات نقل ام سي-130 من القوات الجوية من الجناح الأول للعمليات الخاصة تتحرك في تشكيل رتل متقاطر، وتعبر إلى أفغانستان قادمة من بلوشستان، وهي لسان أرضي مثل يد المقلاة، من باكستان. كانت تحمل مائتي رجل من فوج المغاوير 75، وكانوا سيهبطون بالمظلات على هضبة صحراوية عالية في غضون دقائق. وفوق الهدف كانت هناك طائرة مسلحة سبكتر ايه سي-130 تدور فوق هدف المغاوير وهو: مهبط طويل معبد للطائرات، واسمه الرمزي رينو (خرتيت).

الشيخ محمد بن زايد، رئيس الأركان العسكري للإمارات العربية المتحدة، هو الذي كان قد أخبرني عن المهبط الصحراوي، الموجود على قاع بحيرة جافة. والشيخ، وهو محب متحمس للصقور، كان قد ابتنى هذه المنشأة لتخدم معسكر صيد مجهزاً تجهيزاً حسناً. وقال لي: "إذا استطعتم أن تستخدموا المهبط، فقد لا يتوجب عليكم أن تمارسوا ضغطاً كبيراً على مشرف لإقامة القواعد. وسيكون من الأفضل له إذا استطعتم إبقاء قوة جندكم في باكستان صغيرة."

بعد أن تزودنا بالإحداثيات الدقيقة للمهبط، خططنا عملية مع رجال وحداتنا الخاصة. وكان هدف المغاوير هو تأمين المطار ليكون نقطة استناد لمشاة البحرية الأمريكية، وهم أول قوة تقليدية لنا في أفغانستان.

وإلى الشمال الشرقي من المغاوير كان خط من الطائرات العمودية ام اتش-47 قد انطلق من كيتي هوك وهو يقترب من قندهار. وتساندها طائرة أخرى ايه سي-130 سبكتر. وكانت هذه الطائرات العمودية تحمل قوة المهام جيكو(أبو بريص)، وهي نخبة من الرجال من وحدات المهام الخاصة تحت قيادة اللواء ديل ديلي. وهدفهم هو مجمع قندهار المركزي لقائد طالبان الملا محمد عمر.

وكنا اخترنا عن قصد ألا نقصف ذلك الهدف، آملين أن يعمل مغناطيس جذب لعمر ووكلائه. وتوقعنا أن المتاهة الموجودة من الغرف والظلال داخل جدران المجمع قد تحتوي غنائم استخباراتية مثل: خرائط تعبوية، ذبذبات لاسلكية، أرقام هواتف فضائية. قوائم عملاء وراء البحار، وربما حتى مواقع لاجئين سريين في أفغانستان قد يكون قادة طالبان أو القاعدة مختبئين فيها. والأوامر لدى رجال وحدة المهام الخاصة في عملية جيكو هي أن يستولوا على الموقع بالقوة، وأن يقتلوا أو أن يأسروا أي عدو موجود هناك، وأن يستغلوا الهدف لأغراض الاستخبارات.

ومثل إسقاط المغاوير في رينو، كانت مهمة وحدات المهام الخاصة في قندهار عملية تراوح بين المخاطرة المتوسطة إلى المخاطرة العالية. ولكني كنت أمتلك الثقة بأن المغاوير ورجال وحدات المهام الخاصة يقدرون على تدبير أمور أنفسهم عميقاً في أرض العدو. وكان لهذه العملية ذات القسمين أيضاً هدف إستراتيجي، هو أن مهاجمة قلب أرض طالبان سوف يبين عملياً أننا نستطيع أن نضرب في أي مكان، وفي أي زمان من اختيارنا. وهذا سيخدم في تثبيت قوات طالبان المحدودة في الجنوب. وإذا هددنا الموقع الحصين للملا عمر في قندهار، فإنه عندئذ لن يرسل قواته الاحتياطية إلى الشمال لتعزيز وحدات الطالبان والقاعدة المتحشدة على طول حدود الأزبك والطاجيك.

وفي الحقيقة، كانت الجبال الشمالية، لا الصحراء الجنوبية الغربية، هي المكان الذي سوف نركز فيه جهدنا الرئيسي. وعندما عملت أنا مع ديل ديلي في هذه الخطة، تذكرت الخداع الناجح الذي قامت به فرقة الخيالة الأولى في وادي

الباطن. وذلك الهجوم التظاهري كان قد عمل بشكل كامل، وتوقعت الشيء نفسه في هذه الحالة.

وكنت قد قلت لديل: "كن حركياً. اقتل أو خذ أسرى، واستخدم طائرات سبكتر لإظهار القوة الكاسحة."

تكلم ديل ديلي من مركز عملياته: "المهام على الهدف في غضون تسع دقائق."

وراقبت الرموز تتحرك نحو الأهداف. "أي نشاطات على الأرض يا ديل؟"

"سلبي، سيدي. لا قضايا، لا دراما. "كان صوت ديل هادئاً، وكأنه كان يصف تمريناً للتدريب.

نحن الآن ننتظر. ووقفت أنا ومددت ساقي اليمنى. لقد أظهرت أحدث صور للاستطلاع أن الطالبان قد أنشؤوا قوة أمن على الهدف رينو. وكانت طائرات سبكتر قد ذهبت لإعداد الهدف بنيران الرشاشات والمدفعية الآلية، لتدمر أي أسلحة يخدمها سدنة، مستخدمة المدفع 105ملم المحمول على متنها. ولم يشهد الأفغان، في أي وقت في أثناء حربهم الطويلة ضد الاحتلال السوفيتي، مثل هذه الأسلحة المدمرة. لقد كنت سعيداً لأننا كنا نملك هذه الطائرات المسلحة في مسرح العمليات، وأن اثنتين منها فوق هذين الهدفين في هذه الليلة.

في الساعة 1451 تكلم ثانية. "قوة المهام رينو وقوة المهام جيكو على أهدافها."

وكان لدينا في الجو أيضا طائرة بريديتر، تراقب مهمة جيكو. وعلى الرغم من أنني رأيت تجارب على المهمة في فورت بينّنغ، فإن السرعة المطلقة للدخول كانت لا تكاد تصدق. واكتسحت الطائرات العمودية المتقاطرة بدوّاراتها الكبيرة هدفها داخلة إليه من اتجاهين، وكانت منخفضة إلى درجة كان على الطيارين معها، وهم يطيرون بمناظير الرؤية الليلية، أن يظهروا فجأة بالطائرات لتجنب جدران المجمع. وعندما ارتفعت موجة الغبار، نسف رجال المهام الخاصة البوابات الخلفية وتحركوا نحو أهدافهم، وهم يطلقون النار ويركضون.

وعندما كنت أشاهد، أدى الدخان المتصاعد من المجمع وسحب الغيوم المتصاعدة من دوّارات الطائرات العمودية إلى حجب صور فيديو بريديتر. وانتظرنا إلى الساعة 1535، عندما تكلم ديل ديلي ثانية. "جيكو ورينو مؤمنان. مقاومة في كلا الهدفين. للعدو قتلى في المعركة. الصديق بدون قتلى في المعركة. المهمة مستمرة." حاول الطالبان أن يدافعوا عن الموقعين مثلما توقعنا، والعديد من رجالنا جرحوا. بعض الأعداء قتلوا. لقد أمن المغاوير أهدافهم في رينو، وأخذوا العديد من الأسرى، واستدعوا طائرتين من نوع ام سي-130 لإخراج قوة المهام.

في قندهار، أنهت قوة المهام جيكو عملها وغادرت في الطائرات العمودية المنتظرة. إحدى الطائرات العمودية ام اتش-47 ضربت بحافة جدار المجمع وهي ترتفع خارجة من منطقة الهبوط. انشق جهاز الهبوط الأيمن الكبير ذو الدولابين في الطائرة العمودية وانفصل، ولكن الطائرة في ما عدا ذلك لم تعطب.

كنت على وشك أن أعود إلى مكتبي لمكالمة ديك مايرز عندما اتصل ديل بمعلومات جديدة. وكانت الأخبار سيئة. طائرات ام اتش-60 بينيتريتر(المخترقة) واقفة في الاحتياط مع قوة الرد السريع في مهبط معزول داخل باكستان تحطمت في "عاصفة رملية،" فانقلبت، وأصيبت الطائرة بأعطاب شديدة وقتلت مغوارين.

لقد كانت خسارة محزنة. لقد قاد هذان الجنديان الشابان الطريق، وهما مخلصان بولائهما لعقيدة المغاوير.

قام مكتب توري كلارك للعلاقات العامة في وزارة الدفاع بالسماح بعرض صور فيديو ليلية دراماتية للإنزال الجوي للمغاوير في عملية رينو، وذلك جزء من خطة المعلومات الإجمالية، وكانت السماء الخضراء الفسفورية تزهر بالمظلات في منظر يستثير ذكريات الأشرطة المتقطعة من أخبار الحرب العالمية الثانية عن غزو نورماندي. كانت تلك هي الرسالة بالضبط التي أردنا أن نسجلها مع طالبان. أنتم مكشوفون. قوات التحالف القاتلة تستطيع أن تنزل من سماء الليل في أي زمان، وفي أي مكان. وتستطيعون أن تتوقعوا عودتنا.

وتلقت خطتُنا المساندةَ من مصدر غير محتمل: من مجلة قومية. ففي مقالة عن مهمتي جيكو ورينو، عرض واحد من مراسليها النجوم نسخة مشوهة تشويهاً سيئاً للعمليتين. وكانت إحدى الغلطات الصارخة متمثلة بالوصف الذي قدمه عن مهمة قندهار والذي أدعى فيه المراسل أن المهمة قد "بدأتها ست عشرة طائرة مسلحة من نوع ايه سي-130."

وفكرت، ست عشرة طائرة مسلحة. ممتاز. كنا نعرف من اعتراض الاتصالات أن الطالبان والقاعدة كانوا خائفين من الطائرات ايه سي-130. وشكراً، الآن، لهذه المقالة، فهم سوف يعتقدون أن القيادة المركزية كانت تستطيع أن تضع ست عشرة وحدة من هذا السلاح على هدف واحد. ذلك خيال وليس حقيقة. ونحن نملك ما مجموعه تسع طائرات مسلحة سبكتر في منطقة المسؤولية ونستطيع أن نشغل ثلاثة أو أربعة فوق أفغانستان في أي ليلة معينة. ولكن التقرير المغلوط قد عزز العملية. وتساءلت أكان "الضابط الكبير" الذي لم يسمه المراسل قد زود المراسل بهذه المعلومة عن قصد، أم كان بكل بساطة واحداً من أولئك الذين لا يمتلكون المعلومات الصحيحة، والمسربين المتذمرين الذين ينهون مسارهم الوظيفي بدون فرصة للتقدم في مقصورة في وزارة الدفاع؟

لن أعرف أبداً. ولكن في الوقت الذي كان فيه الطالبان يركزون قواتهم الاحتياطية لحماية قندهار والجنوب، استمر جون مولهوللند في إدخال زمره إلى الشمال.

إن كل حرب تنتج صوراً لا تنسى: رفعُ البحرية للعلم على جبل سوريباتشي في أيوجيما،(*) وتقهقر القوات التي آذاها البرد وجمد أطرافها على سلاسل الجبال الثلجية في كوريا، والإخلاء الطبي للجرحى بالطائرات العمودية في حرب فيتنام.

(*) جبل سوريباتشي في جزيرة أيو جيما في المحيط الهادي الغربي. وقعت فيها معركة لاحتلال الجزيرة كلفت الأمريكيين ٦٠٠٠ قتيل من البحرية وكلفت اليابان ٢٠٠٠٠ قتيل. وزود احتلالها الولايات المتحدة بأول قاعدة داخل النظام الدفاعي الياباني استطاعت منها أن تشن الهجمات ضد الصناعات اليابانية رفع عليها العلم الأمريكي في ٢٣ شباط/فبراير ١٩٤٥م.

وأول أيقونة بصرية لعملية الحرية الدائمة أظهرت جنود القوات الخاصة على ظهور الخيل، يهاجمون عبر منحدر قاحل مع شركائهم من تحالف الشمال. وكانوا يلبسون خلطة متنوعة من البزات الموهة والشملات العرقية من قماش المربعات، ولبس الأمريكيون اللحى وقبعات على شكل الفطر أو الباكول.

ولدى دراسة صور مجلات الأخبار، عرفت تفاصيل قد لا يراها المراقب غير المكترث مثل: محافظ خضراء من ألياف زجاجية تحمل أجهزة إرسال لاسلكية من خلال القمر، وأجهزة النظام العالمي لتحديد الموقع، ودليل الأهداف الليزري مربوطاً إلى سروج الجنود. كان المنظر يبدو وكأن محاربين من المستقبل قد نقلوا إلى قرن أسبق. وتلك الصورة جذبت الانتباه إلى هذه الحرب غير العادية إلى أقصى الحدود: شباب واسعو الحيلة يحملون أحدث تقانة عسكرية وأكثرها تقدماً إلى ميدان المعركة الذي ما يزال فيه فرسان الخيل هم السائدين. وكنت شاكراً لتقانة أمريكا، وكنت مذهولاً من أداء هؤلاء الشباب.

وعندما غادرت من أجل رحلة إلى منطقة المسؤولية للتشاور مع حلفائنا المهمين، كانت القبعات الخضر وطيارو القتال قد شكلوا شراكة سوف تكسر ظهر الطالبان والقاعدة.

بعد الاجتماع مع ولي العهد الأمير عبد الله وأعضاء كبار آخرين من العائلة المالكة السعودية في الرياض، في المملكة العربية السعودية، طرت إلى مسقط، في عمان، لأعيد الاتصال مع السلطان قابوس. وقلت للسلطان: "يا صاحب الجلالة، ولي العهد الأمير عبد الله يساند عملياتنا ضد الطالبان والقاعدة. وكما تعرف إن الجنرال وولد الذي يقود عنصرنا الجوي، موجود في قاعدة في المملكة."

وأومأ السلطان قابوس برأسه.

"وأنا زرت صاحب السمو الملكي حديثاً وأثرت قضية متابعة الحرب في شهر رمضان."

وسأل السلطان قابوس: "وماذا كان رأيه، يا جنرال؟"

وكان يشاركني في الاجتماع من بريطانيا الأمير أندرو، دوق يورك، وهو يلبس بزة البحرية الملكية. وكان الأمير أندرو يزور عمان ليراقب القوات البريطانية في تمرين تدريبي قد خُطط له مسبقاً. وهو مثل السلطان كان ينصت باهتمام بالغ. وكانت أمّتُه أثبتَ حليف لنا في هذه الحرب. فإذا أجبرتنا حساسيات العالم الإسلامي على التوقف طوال شهر قمري عن الحرب عندما يبدأ شهر رمضان في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر، فإننا نخاطر في خسارة الزخم على نحو يحتمل أن يقعدنا عن العمل. فبحلول أواخر كانون الثاني/ديسمبر ستكون جبال أفغانستان مغطاة بالثلوج ولا تُعبر.

ومن ناحية أخرى، فإننا كنا بحاجة إلى مساندة أمم إسلامية مثل المملكة العربية السعودية وعمان، ورمضان شهر مقدس بالنسبة إلى الكثيرين من مواطنيهما. وقد وجهني الرئيس بوش والوزير رامسفيلد إلى معرفة رأي المسؤولين الذين اتصل بهم في هذه النقطة الحرجة.

وهززت رأسي وقلت: "هؤلاء القادة يأملون أن نكون قادرين على هزيمة الطالبان والقاعدة قبل بداية رمضان. ولكنهم يفهمون أن هذا قد لا يكون ممكناً. والآن، أنا أسألك رأيك، يا سيدي"

وقال السلطان: "أيها الجنرال، اسمح لي بسؤال. فالناس يسألون إن كانت الولايات المتحدة سوف تنهي العمل في هذه المرة." كان السلطان يشير إلى الضربات الرمزية التي سبق أن قمنا بشأنها ضد النظام العراقي وأسامة بن لادن في 1998.

"أمريكا بلد مختلف منذ 9/11، يا سيدي. أنا رجل مختلف. وسوف ننهي العمل."

كان السلطان قابوس مسروراً. "جيد. وبالنسبة إلى الشهر المبارك رمضان، فأنا لا أعتقد أنه سيؤدي إلى أي اختلاف. فالمسلمون يخوضون الحرب، أحياناً، في أثناء

شهر رمضان." ووقف وصافحني "يجب عليك أن تتابع المعركة، يا جنرال فرانكس. رمضان هذا للحرب."

عندما رجعت لمقابلة الرئيس مشرف ثانية بعد رحلتي إلى عمان،لم ألعب معه الغولف في إسلام أباد على الرغم من وعدي السابق له.

كانت تجري إعادة الحيوية للتحالف الشمالي من خلال شراكة التحالف مع زمر قواتنا الخاصة. وعبر كل مناطق القتال في وديان بانجشير وآمو داريا، كانت قوات الطالبان وقوات مساندهم من القاعدة تتعرض للضرب بالقنابل التي "لَيْزَرها" رجال قواتنا الخاصة إلى أهدافها. وثبت أن ربط المراقبين الجويين للقتال برفوف الطائرات المقاتلة القاذفة وطائرات بي-52 التي تدور محلقة عالياً فوق ميدان المعركة، هو أقتل حتى من أي صورة كان يستطيع المنظرون العسكريون أن يتخيلوها.

وبدا لنا أن العدو كان غير قادر على فهم طبيعة الأسلحة الدقيقة. وقد قتل المئات من الطالبان والقاعدة في الاشتباكات الأولية. وبالنسبة إلى وحدات تحالف الشمال فقد كانت جاهزة لشن الهجوم بعد أن تم تزويدها بالأسلحة، والذخائر، وملابس الشتاء، والطعام، والأدوية، إضافة إلى الشعير لخيولهم كذلك.

وعندما لخصت الصورة التعبوية لمشرف، تكهن أن نظام الطالبان "لابد أن ينهار قريباً"، مؤملاً أن يكون ذلك قبل رمضان.

وقلت: "آمل ذلك، سيدي الرئيس. فالشعب الأفغاني عانى تحت الطالبان والقاعدة مدة طويلة."

وسأل: "هل تعرفون أين ابن لادن؟"

"لا، سيدي، هل تعرفون أنتم؟"

وتبسم مشرف. "نحن نعتقد أنه ما يزال في أفغانستان، في الشرق، في تورا بورا. كان ضباط استخباراتي سيعرفون لو أنه عبر إلى باكستان."

وشددت: "نحن ماضون خلفه. ولن نقف إلى أن نمسك به."

وسأل مشرف: "وعندما تمسكون به فعلاً هل ستقدمونه للمحاكمة؟"

"يا جنرال مشرف، أنا رجل عسكري. نحن سنأخذه ميتاً أو حياً. فإذا كان حياً، فأنا متأكد أنه سيحاكم بوصفه المجرم الذي هو هو."

في أثناء الطيران عبر أفغانستان متوجهاً نحو طاجيكستان، كان لي محادثة غير عادية مع دونالد رامسفيلد. الوزير نفسه، أيضاً،كان محمولاً جواً، متوجهاً إلى طشقند لإجراء المزيد من المفاوضات مع الرئيس كريموف. وسأل: "هل أنت متأكد أن زمر القوات الخاصة تلك فيها العدد الكافي من كبار الضباط في القيادة؟ إذ يبدو لي أن جنرالات تحالف الشمال لا ينصتون فعلاً للنقباء والرواد الشباب."

"سيدي، الوزير، في غضون أسابيع قليلة سوف يفكر أمراء الحرب بأولئك النقباء والرواد بوصفهم أبناء لهم. شبابنا جيدون جداً في ما يفعلونه."

وقال: "أنت القائد، ولكن تابع ذلك بعينك."

بعد شهور قالت لي مساعدة وزير الدفاع توري كلارك، "أنت ودون رامسفيلد"يجامل أحدكما الآخر. أنت تجعله وزيراً أفضل. وهو يجعلك جنرالاً أفضل."

أعتقد أنها كانت محقة.

كان محمد فهيم خان يجلس مقابلاً لي حول طاولة قابلة للطي في بطن طائرة النقل سي-17 الذي تتجاوب فيه الأصداء. وكان يلبس قبعة باكول من صوف كشميري، وكانت لحيته مشذبة بشكل أنيق. ولكن فهيم على رغم ذلك كان ما يزال يبدو مثل منفذ أعمال المافيا الكريهة لرئيسه.

الوقت متأخر في آخر يوم ثلاثاء من شهر تشرين الأول/أكتوبر، والليل، بارد في دوشانبه، في طاجيكستان. ووقفت الطائرة الضخمة وحدها على رصيف عند النهاية القصوى من المطار المدني. كان فهيم مع رجل قدمه لنا على أنه "وزير ماليته"

قد وصلا في سيارة مرسيدس سيدان مغبرة. وكان يجلس عن يميني ضابط قديم من مديرية عمليات وكالة الاستخبارات المركزية وسأسميه هانك، وكان قد رافقني في هذه الرحلة. وعلى يساري، جلس العقيد جون مولهوللند، وهو عسكري ضخم الجثة جعلني أبدو صغيراً إلى جانبه، وقد أراح المرفقين المهترئين لبزته الصحراوية المموهة على سطح الطاولة، وكان أكثر من متعب.

شربنا قهوة القوات الجوية القوية، لا شاياً. ولكن هذه المفاوضات كانت مفاوضات شرب الشاي. إذا كان يوجد مفاوضات مطلقاً.

وبصفته قائد تحالف الشمال فقد جاء فهيم، بعد أن تولى القيادة على أثر اغتيال مسعود، إلى هذا الاجتماع ليساوم. لقد قاد أكبر قوة معارضة في أفغانستان، وأفضلها تجهيزاً. وشهد الامتزاج الفعال بين قواتنا الخاصة وما يبدو أنه إمداد لا ينضب من الأسلحة الدقيقة.

وقال من خلال مترجم وكالة الاستخبارات المركزية "إذا كنت أستطيع أن أساعدكم وأنتم تستطيعون أن تساعدوني فكلانا سيربح. إن شعبي قد حارب الإرهاب طوال سنوات، مع شدة خاصة منذ استلام طالبان للسلطة. ومع امتزاج جهودنا معاً، ستكون هناك نتائج إيجابية."

وقلت: "أنت لم تر شيئاً بعد." قلت ذلك وأنا آمل أن يتمكن المترجم من فهم المقصود، وكان يتحدث الإنجليزية بلكنة بريطانية.

وقد فعل على ما يبدو، لأن فهيم أجاب بحكمة خاصة به: "ونحن نحترم الجميع ونثق بالجميع."

وسألت: "هل ستثق بي وتسلمني حياتك؟"

"نحن جنود وليس لنا خيار، حياتنا بين يدي الله."

إنه يتحدث بشكل جيد. ولكن هل سيتابع الضغط بالقتال عندما تصير الأمور قاسية؟

كان هناك سبب لإحضاره "وزير المالية" الخاص به.

فتحتُ أنا الخريطة التعبوية الخاصة بجون مولهوللند على الطاولة "ما هي نواياك، أيها الجنرال؟"

وبقلم رصاص ذهبي ميكانيكي وضع سلسلة من الرموز الأنيقة على الخريطة. أولاً، رسم خط تقدم جنوباً من وادي بانجشير إلى شمالي السهول الواقعة شمال كابول. ثم حلق بدوائر على عدة مدن شمالية، كان الطالبان وحلفاؤهم من القاعدة قد تجمعوا فيها: طالوقان، كوندوز، ومزار شريف. "هذه هي أهدافنا المباشرة. يجب على سلاحكم الجوي أن يركز على قصفها ليسمح لقواتنا بالاستيلاء على هذه المدن. ثم سأنتقل إلى الجنوب إلى باغرام." ورسم رمز الطائرة النفاثة على الصفحة التي مثلت القاعدة الجوية لسلاح الطيران السوفيتي السابق شمالي كابول.

وقدّمتُ خطته معنى تعبوياً جيداً. فإذا كان فهيم في الحقيقة يمتلك ولاء جميع قادة تحالف الشمال، فقد كان متوازناً ليدمر تحشدات العدو عبر الشمال وليفتح جسراً أرضياً حيوياً مع أوزبكستان. فبعد أن يكون ذلك الطريق سالكاً، سيكون باستطاعتنا مساندة قوات المعارضة عن طريق نظام طرق عامة قابلة للعبور تمر عبر آسيا الوسطى على طول الطريق إلى أوروبا. وسيكون بالإمكان أيضاً تدفق المساندة الإنسانية الحيوية للأفغان المحاصرين. وفي نهاية اليوم، سيكون الأفغان هم الذين سيقررون نجاح عملياتنا. فإذا توافر لهم الإمداد الكافي، فإن المرحلة الرابعة (إعادة البناء) سوف تكون متسارعة بما لا يقاس.

وناقش فهيم تفاصيل خطته التعبوية. وقال إن طالوقان كانت هدفاً مبكراً حيوياً لأنها ستعطي مقاتليه مطاراً.

وسألت: "وكابول؟"

ودرسني فهيم بعينيه الغائرتين العميقتين وقال: "لن ندخل كابول إلى أن تعطوا أنتم الإذن."

كان ذلك الجواب هو الصحيح من الناحية السياسية. هل كان مخلصاً؟ تلك كانت هي القضية الحرجة. لقد اجتمعت في باكستان مع عدة قادة من المعارضة الباشتونية من أفغانستان الجنوبية. وكان أعلاهم تأثيراً حامد قرضاي، وكان رجلاً على دراية بشؤون الحياة، ومتعدد اللغات، وهو يشعر بالارتياح بشكل متساو مع شيوخ القبائل، والدبلوماسيين، والعسكر. قرضاي كان قد قطع علاقاته مع طالبان مباشرة بعد أن بدأ نظامهم الإسلامي المتطرف اضطهاده للناس، وكانت محطة وكالة الاستخبارات المركزية في إسلام أباد، وهي فعلياً سفارتنا لأفغانستان في المنفى، قد ساندت قرضاي ليكون هو القائد الوطني في المستقبل الذي يستطيع أن يوحد الفئات العرقية المتنوعة.

وأنا أيضاً تأثرت. كنا نحتاج إلى بناء قوة معارضة باشتونية، لمقاتلة الطالبان. وكنت أعتقد أن قرضاي كان هو بالضبط القائد الباشتوني المناسب لبناء تلك القوة. فإذا انهارت فجأة مقاومة العدو، وقام تحالف الشمال المكون من الطاجيك، والأزبك، والهزارا باكتساح الفراغ القائم في كابول، فإن أفغانستان قد تواجه حرباً أهلية أخرى تضع الفئات الشمالية في مواجهة الأكثرية الباشتونية. وكان واضحاً من جواب فهيم أنه كان يفهم المشكلة ويحترمها. وتساءلت ماذا عسى أن يكون رأيه في حامد قرضاي.

لقد حان الوقت لمناقشة أسعار السجاد.

وسألت: "وماذا تحتاج منا زيادة؟" ونظرت إلى الأعلى فرأيت مولهوللند يدرس وجه فهيم. فزمر قواتنا الخاصة كانت تحرز من قبلُ مع دوستم جنوب مزار الشريف تقدماً أفضل من وحدات فهيم الكبرى في الشمال الشرقي.

وقال فهيم، بموافقة غير متوقعة: "الجنرال دوستم يحتاج إلى الأسلحة والذخائر أكثر مما نحتاج نحن إليها. وهو يستطيع أن يستولي على مزار الشريف بسرعة إذا قدمتم له المساندة."

وضغطت: "ولكن إلام تحتاج أنت؟"

وتشاور فهيم مع وزير ماليته. "ما نوع مساندة الإمداد والتموين الإضافية... والمالية التي تستطيعون توفيرها؟" ونظر إلى هانك، متجنباً النظر في عيوني.

وضع هانك صفحة حاسوبية مطبوعة فيها قائمة بالذخيرة، وأجهزة اتصالات، وإمدادات طبية. "أنا محتاج إلى مطار كبير يكفي لاستقبال طائرات سي-130."

وتبسم فهيم بأدب. "طائرتكم من نوع سي-130 مشهورة. والطائرات المسلحة منها قد دمرت معنويات الطالبان والعرب."

وسأل هانك: "وإذا حصلتم على إمداداتكم..."

وبدأ فهيم: "إذا استوليت على طالوقان ومطارها -" ثم استدار إلى رجل ماليته وهمس قبل أن يتابع، "أحتاج إلى ثلاثة ملايين دولار أمريكي شهرياً."

وسألت: "تحتاج إلى ثلاثة ملايين دولار لتشن هجومك وتستولي على مزار شريف؟"

كنت أنا وهانك قد أعددنا لهذا. هو يلعب دور الشرطي الطيب، وأنا كنت السيئ.

وانتظرنا.

وأضاف فهيم: "أوه، لا. لكل العملية، سوف أحتاج إلى سبعة ملايين دولار شهرياً."

وقفت وحدقت في المترجم. "هذا هراء ترجم ذلك."

مشيت نازلاً الدرجات الأمامية لطائرة النقل، وتبولت، ودخنت سيجارة على الأرض المزفتة. وكان هذا هو الأداء التمثيلي الذي تدربنا عليه. وفي نفق فسحة الحمولة المضاء إضاءة باهرة، كان هانك يحاضر فهيم... "الجنرال فرانكس غاضب جداً."

ثم عدت ودخلت إلى الطائرة وجلست على الطاولة. وأومأ هانك ثم تكلم إلى فهيم. "اتفقنا. خمسة ملايين دولار لكل الشمال. سوف تستولي على مزار الشريف قبل شهر رمضان، وتتوقف خارج كابول إلى أن تتسلم الإذن بدخول العاصمة."

قال فهيم: "نعم."

وعندما غادر فهيم ووزير ماليته الطائرة، كنت أستطيع أن أتصور أكياس المتاع مملوءة بملايين الدولارات وهي تعبأ في سيارته المرسيدس. وكنت آمل أن يكون للسيارة نوابض جيدة، لأن الكدسات العديدة من المئات ستشكل حملاً ثقيلاً.

لم أعرف إن كنا قد بادلنا حصاناً أو أننا اشترينا سجادة. ولكني كنت على يقين من أن الجنرال محمد فهيم خان ووحدات تحالف الشمال كانوا سيقاتلون في الحرب إلى جانبنا. وكما كان يمكن لأبي أن يقول: "هذه السيارة تحتاج إلى قليل من العمل، يا تومي ري. ولكنها ستكون جيدة في غضون شهر أو اثنين."

في أثناء حياتي، عرفت "العنف الأولي" للحرب التي سبق أن وصفها كلاوزفيتز. في فيتنام، كان إطاري المرجعي ضيقاً، مربع إحداثيات واحد في كل مرة. وعندما كنت جنرالاً بنجمة واحدة، برتبة عميد، في عاصفة الصحراء، كانت وجهة نظري أوسع بكثير، ولكنها كانت ما تزال محدودة بالمشكلات التعبوية. أما الآن فأنا أقود تحالفاً مشتركاً وأمتلك رؤية أوسع. كنت أثق بمرؤوسيّ. كنت أراقب أعمالهم، ولكني لا أحاول السيطرة على أشغالهم الفردية، حتى على الرغم من أني كنت أمتلك القدرة على فعل ذلك بفضل التقانة العالية في مقر القيادة المركزية. لقد شاهدت سياسيين وجنرالات يختارون أهدافاً في فيتنام، لم تعمل في ذلك الوقت، ولن تعمل الآن. القيادة المركزية "دفعت بالإستراتيجية إلى الأعلى" بدلاً من انتظار واشنطون كي "تدفع بالتعبئة إلى الأسفل."

كان دون رامسفيلد رئيساً شديداً، ولكنه لم يحاول قط أن يسيطر على تعبئة قتالنا للحرب. ولكن الشيء نفسه لا يمكن أن يقال على آخرين في بيروقراطية وزارة

الدفاع. ففي الوقت الذي كان فيه ديك مايرز، وبيت بيس، نائب رئيس الهيئة العامة، سريعين في توفير المساندة، وبطيئين في توجيه النقد، فإن عدداً من الضباط في هيئة الأركان المشتركة كانوا على طول موجتهم التعبوية الخاصة، وكان هؤلاء الضباط هم مركز التركيز في "اندفاعي" الإستراتيجي.

وبالنسبة إلي، فإن مسار الحرب في أفغانستان في الأسابيع الأولى من شهر تشرين الثاني/نوفمبر 2001 يكشف في غبش نهارات وليالٍ طويلة، أضاءها الفيديو، عن قرارات اتخِذَت وأهداف تحققت. (سوف أترك للمؤرخين العسكريين واجب استعادة كل التفاصيل.) ما كان مهماً هو أن أعمال القتال تلك أحرزت انتصارات، وأن الانتصارات كانت تاريخية. محمد فهيم خان وَفَى بكلمته وسلّم البلدات الحيوية في الشمال. وسقطت طالوقان، وكوندوز، وهيرات في تتابع سريع، جميعها سقطت في غضون أسبوع. وتايغر 02، وهي زمرة القوات الخاصة التي ساندت الجنرال عبد الرشيد دوستم، كان يقودها نقيب شاب، ورئيس رقباء ذو خبرة، ورقيب درجة أولى كان طويلا نحيفاً، وأسماؤهم في الحرب مارك، وبول، ومايك، قاتلت هذه الزمرة معارك وحدات صغيرة هي من أبرع المعارك تعبوياً وأشجعها في التاريخ العسكري الأمريكي. فالقبعات الخضر هذه واجهت مقاومة عدو ذي عزم مصمم، والطقس الفظيع، والإصابات المتزايدة في صفوف الجند المحليين، واستخدمت المناورة والقوة الجوية لتدمير جيش كان السوفيت قد فشلوا في زحزحته بعدد من الجنود وصل إلى أكثر من نصف مليون رجل. وهزمتْ قواتُ دوستم الطالبان والقاعدة، واستولت على مزار شريف في أصيل يوم 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2001.

الطالبان ومساعدوهم من العَرَبان هُزموا في الشمال.

زمر تايغر الأخرى التي كانت تعمل في الجنوب استخدمت القوة الجوية للتحالف لقصف العدو حتى الخضوع. وكان حامد قرضاي، وهو الذي يمكن أن يؤثر بصفته شخصية العالم المهذب، كان غارقاً حتى ذقنه في قتال شرس شمالي قندهار. وعندما كانت قواته قد اكتُسحت تقريباً من خمسمائة من الطالبان كانوا

يتقدمون صاعدين في وادٍ شديد الانحدار في قافلة من الشاحنات الصغيرة، تمسك قرضاي بأرضه، ووضع ثقته في مستشاريه الأمريكيين في القوات الخاصة، التي كان يقودها عسكري شاب شجاع اسمه النقيب جاسون آمرين. وقامت زمرة آمرين باستدعاء الضربات الجوية المتكررة، وبعضها كان يضرب على مسافة مائتي متر من مواقع قرضاي المقاتلة قرب العاصمة الإقليمية لتارين كوت. ودمر ذلك الاشتباك آخر احتياطيات عملياتية للطالبان، وجاء سقوط قندهار بعد ذلك سريعاً.

راقبت شاشات البلازما لمركز العمليات المشتركة عندما كان رجال وحدات المهام الخاصة تحت قيادة ديل ديلي يتحركون في الطائرات العمودية لإنقاذ رهائن منظمة شيلتر ناو ويطيرون بهم إلى باكستان وعندما قامت وحدة الطوارئ البحرية 15 بإعادة احتلال الهدف رينو. وكما قال ونستون تشرتشل قبل عقود خلت، كانت هذه هي "بداية النهاية."

في صباح يوم 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 2001، تلقيت مكالمة غير متوقعة من الوزير رامسفيلد. في ذلك الوقت كنت أعمل مع جين رينيوات وأركان العمليات في المساندة الجوية للوحدات الأفغانية المندفعة نحو جبال سِّبِنْ حول تورا بورا.

"يا جنرال فرانكس، يريد الرئيس منا أن ننظر في خيارات للعراق. فما هو الموقف في تخطيطك؟"

طوال العملية في أفغانستان، بقيت الحالة في العراق قضية، وكانت دائماً موجودة ضمن محيط رؤيتي. وكان نمط الهجمات الموجهة إلى طيراننا الذي يقوم بالدوريات في مناطق حظر الطيران قد أطلق خيارات الرد في مستويات متنوعة. لقد كانت حرباً بدرجة منخفضة، ولكنها تبقى هي الحرب نفسها تماماً. وفي كل صباح، عندما كنت أكتب ملاحظاتي اليومية على بطاقة فهرس جديدة، أدرجت "الملاحون الجويون المسقطون في العراق" بصفة ذلك تحدياً محتملاً.

وقلت: "سيدي الوزير. لدينا خطة طبعاً. خطة العمليات 1003."

"ما رأيك فيها، يا جنرال؟"

"عاصفة الصحراء 02 إنها قديمة العهد، وتحت المراجعة لأن الظروف تغيرت. لدينا مستويات قوة مختلفة في المنطقة أكثر مما كنا نملك عندما كتبت هذه الخطة. ومن الواضح أننا تعملنا بعض الدروس القيمة من خبرتنا في أفغانستان."

وقال رامسفيلد: "حسناً، يا توم. أرجو أن تنفض الغبار عنها وترجع إلي في الأسبوع القادم."

وفكرت، ابن الك... لا راحة للمتعبين...

وقلت: "جين. أمسك بجين كيمونز واحضرا لرؤيتي. عمل جديد يجب أن ينجز."

في صباح يوم 22 كانون الأول/ديسمبر 2001، جلست أنا وكاثي جنباً إلى جنب على مقاعد نايلون كالأرجوحة في الطائرة العمودية ام اتش-47. وخارج النوافذ المصنوعة من بلاستيك شفاف مقاوم للحرارة (بليكسي غلاس)، تكشفت التلال الشرقية من أفغانستان في الشتاء الجاف. كنا على مسافة خمس عشرة دقيقة إلى الجنوب من قاعدة باغرام الجوية، وكانت الآن مقر التحالف. ويمتد أمامنا طول كابول الضبابية، المدخنة نصف المدمرة في وادٍ على شكل طاسة.

وصحت بصوت أعلى من ضربات دوار الطائرة: "إنها تبدو مثل لوس أنجيلوس بعد زلزال." لقد كانت المدينة قد دمرت نتيجة سنوات من الحروب.

ونظرت كاثي إلي وابتسمت.

وجلس غاري هاريل في مقابلنا في قسم الشحن، وهو يشخر، ويغط في نوم عميق. ومثل معظم رجال المهام الخاصة أصحاب الخبرة في القوات الخاصة، كان يستطيع أن ينام في قلب إعصار.

كنت متعباً، ولكني لم أكن نعسانَ. فطوال الأيام الثلاثة الماضية كنا نقطع منطقة المسؤولية جيئة وذهاباً، منطلقين من عمان على متن سي -17.

وسافرت معنا فرقة وين نيوتون من منظمات الخدمة المتحدة إلى قاعدة البحرية في رينو، وإلى قندهار، واستمرت إلى باكستان، جالبة معها فرح عيد الميلاد إلى الجند. وفي هذا الصباح، كنت أحضر أنا وكاثي مراسم تنصيب الحكومة الانتقالية لحامد قرضاي، التي تم انتخابها في مؤتمر رعته الأمم المتحدة في بون، في ألمانيا، قبل ثلاثة أسابيع.

كنت أعرف أنه ما يزال هناك قتال شديد ينتظر في المستقبل في أفغانستان. ولكن المقاومة الرئيسية قد تم تحطيمها. بقايا الطالبان والقاعدة كانت تختبئ في الجبال الثلجية في الجنوب الشرقي، وهي تخضع لقصف بالقنابل لا هوادة فيه. وقد تم تحرير خمسة وعشرين مليون أفغاني، في أقل من ثلاثة شهور من العمليات العسكرية.

هبطت الطائرات العمودية في قطعة تبعثرت فيها الأنقاض بالقرب من السفارة الأمريكية. ورافق جنود مشاة البحرية بسياراتهم العسكرية من نوع همفي سيارتنا السوداء من نوع شيفي اس يو في إلى قاعة الحكومة.

كانت هناك حشود من المراسلين حملة آلات التصوير، يتدافعون للحصول على موقع. وجنود تحالف الشمال الملتحون في ملابس الشغل المهلهلة يحملقون في كبار الشخصيات الغربية وهم يصلون في سياراتهم اللامعة. وانحنى مسؤول أفغاني في بزة وربطة، ثم قادنا إلى المدخل. وقال وهو يبرق بأسنان ذهبية: "أهلاً وسهلاً، تفضلوا."

ومررنا من خلال كاشف المعادن المحروس من كل جانب من جنود تحالف الشمال الذين لا يبتسمون وهم يحملون الكلاشينكوفات.

وعندما صعدنا الدرج نحو القاعة الرئيسية سألتني كاثي: "أليس معك مسدس، يا توم؟"

وربتّ بيدي على القراب الموجود في منطقة القَطَن أسفل الظهر. "كوني واثقة."

وانحنى غاري هاريل إلى الأمام وهو يتظاهر بالتغاضي عنا. وقال: "أنا أصر ثلاثة مسدسات يدوية وسكينتين."

وردت كاثي:"حسناً، لابد أن ذلك الحفل هو حفل كشاف المعادن."

ملأ القاعَةَ التي تتجاوب بالأصداء حشدٌ من الناس الذين بدوا كأنهم خرجوا من صفحات كتابات كبلنغ(*)، قوس قزح من العمم، والأثواب، والوشاحات. وجلسنا في مقاعدنا المخصصة في الصف الأول. ومن حولنا جلس ممثلو أكثر من عشرين شريكاً في التحالف من البريطانيين، والفرنسيين، والألمان، والحلفاء الآخرين في الناتو.

وخفض محمد فهيم خان رأسه احتراماً. وتبسم حامد قرضاي بحرارة وصافحنا.

الرايات معلقة على الجدران، ومنقوشة بالحروف الفارسية والإنجليزية. "الموت للإرهاب." "اللهم امنح العالم السلام والرفاهية." وخلف المنصة كانت معلقة صورة ضخمة لأحمد شاه مسعود، "أسد بانجشير،" وهو الآن شهيد الأمة.

وتقدم صبي يلبس ثوباً أزرق، وقاد شيخاً أعمى، أبيض اللحية إلى المنبر. وتبسم الشيخ المسن، وتحسس الميكروفون، ثم بدأ بعد ذلك بترتيل آيات من القرآن. وقف الجميع من أجل النشيد الوطني لأفغانستان الجديدة، وهو موسيقى مشية عسكرية حماسية. لم نكن نملك أي مترجم للخطابات التي تلت ذلك، ولكن كان من السهل أن نفهم مزاج النصر.

وبعد أن اختتم المتحدث الثاني ملاحظاته النابضة بالحياة، رفع قبضته اليمنى فجأة وصاح: "مسعود" وكأنه هو نفسه كان في صلاة. " مسعود!"

مئات من الناس من حولنا رفعوا قبضاتهم. "مسعود!" صاحوا إجابة لمن بدأ "مسعود!".

(*) روديارد كبلنغ (١٨٦٥ - ١٩٣٦م)، كاتب بريطاني، كتب أعماله في بيئة الهند وبورما في فترة الاستعمار البريطاني. نال جائزة نوبل للأدب في ١٩٠٧م، وهو صاحب القصيدة التي تقول: أوه الشرق في الشرق، والغرب هو الغرب، ولن يلتقي الاثنان أبداً.